حكايات عن جزيرة فاروس

سيرة ذاتية



محمد جبريل

حكايات عن جزيرة فاروس

سيرة ذاتيـــــــــة

محمد جبريـــــل

" هناك فى وسط البحار التى تعوم فيها مصر ..

قامت جزيرة فاروس التى يعرفها الجميع

هوميروس

الماضى مهما كان مراً ، فهو حلو ..

استمعت إلى هذه الكلمات ــ للمرة الأولى ــ من أستاذنا يحيى حقى . وأعتقد أنها تصدق ــ إلى حد كبير ــ علــى بعض الفترات فى حياتى ، وبالذات فترة التهيؤ لاستقبال الشباب ، وفترة التهيؤ لوداعه ..

أعاود النظر إلى تلك الفترة ، داخل الإطار الذى صنعه توالى الأعوام . شكلت بتكويناتها وجزئياتها وألوانها وظلالها لوحة ، ربما وجد فيها المتأمل شيئاً يستحق المناقشة ..

الهدف من كتابة هذه الكلمات ليس رواية سيرة ذاتية ، ولكن مجرد تسجيل بعض الملاحظات حول أحداث حقيقية ، ماحدث بالفعل ، فلا أقع فى شراك الخيال ، ذلك القرين الذى يرافق المبدع فى لحظات الكتابة ..

أملى أن تشكل هذه الملاحظات ــ فى مجموعها ــ شهادة مواطن مصرى ، من أبناء الجيل الذى استقبــل الحيــاة حول سنى الحــرب العالمية الثانية ، وشهد ، وعايش ، عشرات الأحداث فى تاريخ بلاده ، والعالم .

محمد جبريل ٨ ديسمبر ١٩٩٢

١٩٣٨

ولدت فى السابعة صباح الخميس ١٧ فبراير عام ١٩٣٨ . قال لى أبى إنى تبولت ــ لحظة ولادتى ــ فى يدى الطبيب . اسمه الأول أنطون ، ولا أذكر بقية الإسم . وكانت ولادتى فى البيت نفسه الذى شهد طفولتى وصباى وشبابى الباكر (٥٤ شارع اسماعيل صبرى) حتى غادرت الاسكندرية فى نهاية الخمسينيات بحثاً عن فرصة عمل بصحف القاهرة ..

كان قد مضى عامان على انشاء كورنيش الإسكندرية . أنشأه اسماعيل صدقى عام ١٩٣٦ بامتداد ٢٦ كيلو متراً من رأس التين إلى المنتزة ..

وقبل مولدى بستة وعشرين يوماً . بالتحديد فى ٢٠ يناير ١٩٣٨ ، تزوج الملك فاروق من فريدة ذو الفقار . وصف العقاد ذلك بأنه تعبير عن ديمقراطية الملك . وكان " حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول ــ أعزه الله ــ قد تولى عرش ملكه السعيد " فى ١٥ مايو ١٩٣٧ ،

وإن أدار الحكم ــ منذ وفاة الملك فؤاد ، حتى بلوغ فاروق السن القانونية ، مجلس وصاية مؤلف من الأمير محمد على ، وعبد العزيز عزت باشا ، ومحمد شريف صبرى باشا ..

ولد فاروق فى الحادى عشر من فبراير ١٩٢٠ . أتذكر أغنية مطلعها : أهو جانا حــداشر فبراير ، ظلت تؤدى فى مناسبة عيد ميلاد الملك ، حتى قيام ثورة يوليو . وارتقى عرش مصر ــ عقب وفاة أبيه الملك فؤاد ــ فى ٢٨ ابريل ١٩٣٦ . وأمه هى صاحبة الجلالة الملكة المعظمة نازلى . ولدت بالإسكندرية فى ٢٥ يونيو ١٨٩٤ ، واقترن عزّها ــ يعنى تزوجت ! ــ بالمغفور له حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد المعظم فى ٢٤ مايو ١٩١٩ ، وأخواته حضرات أصحاب السمو الملكى الأميرة فوقية (ابنة الملك فــؤاد من الأميرة شويكار ، زوجته الأولى) والأميرة فوزية ولدت فى ٥ نوفمبر ١٩٢١ ، والأميرة فايزة ولدت فى ٨ نوفمبر ١٩٢٣ ، والأميرة فائقة فى ٨ يونيو ١٩٢٦ ، والأميرة فتحية فى ١٧ ديسمبر ١٩٣٠ . فى العام نفسه ، أعلنت خطبة صاحبة السمو الملكى الأميرة فوزية إلى حضرة صاحب السمو الأمبراطورى شاهبور محمد رضا

ولى عهد الامبراطورية الإيرانية . وتعطف جلالة الملك ، فأمر بأن توضع سيارة جلالته الخاصة من طراز مرسيدس ، والمهداة إليه من الهر هتلر ، تحت تصرف رئيس البعثة الساميـــة الإيرانية ، فى سفره إلى القاهرة ، وتنقلاته فيها . وأجريت عملية ترميم كاملة فى قصر أنطونيادس بالإسكندرية ، حتى يستقبل الوفد الإيرانى المرافق صاحب السمو الامبراطورى ولى عهد ايران ، فى حفل عقد خطبته على صاحبة السمو الملكى الأميرة فوزية . وولدت فى السابع عشر من نوفمبر : فريال ، كبرى كريمات الملك فاروق . واحتفاء بهذه المناسبة ، وزع السيد محمد بدراوى عاشور كسوة على ثلاثة آلاف فقير ، فضلاً عن إطعامهم ..

فى اليوم السابق لمولدى (١٦ فبراير ١٩٣٨) نشرت مجلة " ماتش " الفرنسية تحقيقاً عن قناة السويس ، بمناسبة انتقال القوات البريطانية من القاهرة والإسكندرية إلى القناة . قالت : يبدو لنا أنه انتقال لا رحيل . وتوصل رئيس وزراء مصر محمد محمود باشا ــ فى مباحثات أجراها فى لندن ــ إلى اتفاق تام مع الحكومة البريطانية على مسألة انشاء الثكنات . كما أعلن " بقوة كل مايساور المصريين من قلق

بشأن الحالة فى فلسطين " . وجاوز حضرة الصاغ محمد نجيب (أول رئيس للجمهورية فيما بعد) امتحان كلية اركان الحرب . وتخرج جمال عبد الناصر ، والعدد الأكبر من قيادات الضباط الأحرار من الكلية الحربية ، جيل جديد من الضباط ينتمى إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا كأثر ايجابى لتوقيع معاهدة ١٩٣٦ . وكان الجيش المصرى يتألف من نحو ستمائة ضابط و٢٥٠٠ جندى . يعفى من الجندية مستخدمو الحكومة الداخلون فى هيئة الحكومة ، وبعض مستخدمى الحكومة الآخرين ، وأولاد الضباط ، وأولاد العمد والمشايخ العاملين والمتقاعدين ، بشرط أن يكونوا قد خدموا عشر سنوات ، ولم يفصلوا لسبب ما . كذلك أخوة الضباط ، الموجودون بالخدمة ، والمحالون على الاستيداع ، والأبناء الوحيدون ، وأكبر أبناء الأب الميت أو العاجز عن التكسب ، وأكبر أبناء الأرملة أو المطلقة ، وكل من يساعد فى نفقة واحد أو أكثر من أجداده ، والأخ التالى لأخيه المجند بالقرعة ، وطلبة المعاهد الدينية ، وخريجو الجامعات ، وبعض المدارس الصناعية ، وبعض الموظفين الدينيين ، فضلاً عن وسيلة أخرى ، غريبة ، للإعفاء من التجنيد ، وهى دفع بدل

نقدى يتراوح بين ٢٠ إلى مائة جنيه لكل مطلوب للتجنيد . وكانت المحصلة النهائية لتلك الإعفاءات أنه لم يكن يدخل الجيش إلاّ أبناء الأسر المعدمة ، بما يشكّل جيشاً لمرافقة كسوة المحمل ، لكنه أبعد مايكون صلاحية للقتال . ومن بين استعدادات القوات المسلحة المصـــرية للحرب ، صدرت الأوامر إلى الأورطة الثانية مشاة بتوزيع قواتها على خزانات ومنشآت وكبارى الوجه القبلى . كما رابطت قوات عند خزان أسوان ، وتم تحصين السد ، ومنع مرور الإفراد والمركبات والسيارات على الخزان ، فيما عدا موظفى إدارة الخزان الذين حصلوا على تراخيص تخوّل لهم المرور إلى مكاتبهم . واستوردت حكومة محمد محمود باشا مليون كمامة للوقاية من الغازات ، تحسباً لتطورات الأحداث المقبلة . وفى ١٤ سبتمبر تفقد الملك خطوط الدفاع فى الصحراء الغربية ..

فى العام نفسه ، رفعت أسرة الزعيم أحمد عرابى مذكرة إلى رئيس الوزراء محمد محمود ، تطالب برد أملاك عرابى التى صادرتها الحكومة فى عام ١٨٨٢ . وأزيح الستار ــ فى أغسطس ــ عن تمثال سعد زغلول المطل على

الميناء الشرقية ، والذى أصبح ــ فيما بعد ــ من أهم معالم المدينة (أذكّرك بالسمان والخريف وميرامار لأستاذنا نجيب محفوظ) . وأصدر حزب الوفد قراراً بفصل الدكتور أحمد ماهر لتضامنه مع النقراشى ، وعدم اعترافه بقرار فصله . وحدثت محاولة اعتداء على مصطفى النحاس ، وخرجت المظاهرات تهتف بحياة زعيم الوفد ، وتتهم محمد محمود بمحاولة اغتياله . وأعلنت جماعة الأخوان المسلمين أهدافها السياسية ، بعد أن كان نشاطها مقصوراً على الاجتهاد الدينى . وبدأت الحكومة فى اعداد مشروع قانون لهيئة الصحافة " ينظم مالها ولرجالها من حقــوق وامتيازات ، وماعليها من تكاليف وواجبات " . وفى الأول من مارس ١٩٣٨ أعلن تأسيس الاتحاد العام لنقابات عمال المملكة المصرية من ٣٢ نقابة ، برئاسة عباس الحليم . ثم أسندت رئاسة الاتحاد ــ بعد شهر واحد ــ إلى محمد الدمرداش الشندى ، وهو عامل فنى من عمال النسيج بالإسكندرية . ونظم الاتحاد العام للعمال فى مايو مظاهرة هائلــة طافت شوارع القاهرة ، مارة بقصر عابدين ورئاسة مجلس الوزراء ووزارة التجارة والصناعة ومجلس النواب ودور الصحف إلخ .

وتظاهر الطلبة كى تكفل لهم الحكومة فرص العمل ، وشهد العام إنشاء الكليات الأولى بجامعة فاروق الأول : الآداب والتجارة والحقوق . وكان عدد المتعلمين ـــ من يعرفون القراءة والكتابة ـــ ١٠ % من مجموع المواطنين . أما عدد حملة الشهادات ـــ بما فيها الشهـــادة الابتدائية ـــ فكان نصف فى المائة . وأدرج فى ميزانية الأزهر مبلغ خمسة آلاف جنيه لنشر الثقافة الإسلامية فى البلاد النائية ، والعناية بالبعثات الوافدة إلى الأزهر ، ومنح مسلمو نيويورك ٨٠٠ جنيه من هذا الاعتماد لإعانتهم على إنشاء مسجد . وكان شيخ الجامع الأزهر هو فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى . أما رأس طائفة الأقباط الأرثوذكس فهو حضرة صاحب الغبطة الأنبا يؤانس التاسع عشر بابا وبطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة والخمس المدن الغربية " بنتا بوليس " وسائر افريقيا والشام ..

وارتفع فيضان النيل ـــ فى أغسطس ـــ إلى حد الخطر . وصدرت الأوامر إلى مهندسى الرى بالمبيت على جسور النيل ، وأن يكون كل مهندس مسئولاً عن مسافة قصيرة من الجسر ، فضلاً عن أعمال تقوية الجسور ووقايتها . وفى

سبتمبر بلغ فيضان النيل مرحلة الخطر . سجّل مقياس الروضة ٢٤ ذراعاً وعشرة قراريط . أما الحد الأقصى ــ قبل تحقق الخطر ــ فهو ٢٤ ذراعاً . أما الدخل القومى ، فقد بلغ حوالى مائتى مليون جنيه ، أى حوالى ١٢ جنيهاً للفرد فى السنة .وأوردت الإحصاءات أن سبعة ملايين ونصف مليــون مصرى يحيون ــ فى المتوسط ــ بجنيه أو نصف الجنيه فى الشهر ، وأن عــدد باعة اليانصيب فى القاهرة وحدها جاوز الثلاثة آلاف . وتعددت اضرابات طلبة الكليات والمعاهد العليا طلباً للتوظف أو تحسين الرواتب . كان عدد سكان مصر ١٦٫٣ مليــون نسمة ، منهم ١٤ مليوناً ونصف المليون مصابون بالتراكوما ، وحوالى ١٢ ألفــاً من المكفوفين ، وبلغ عدد مرضى السل حوالى نصف مليون مريض ، مات منهم أثناء العام ٤٠ ألفاً . وأدلى وزير المعارف ببيان ، أكد فيه أن ٧٠ % من تلاميذ المدارس الأولية مصابون بأمراض صدرية ، نتيجة الجوع . وكان أكثر من ١٠ ملايين مصـــابين بالبلهارسيا والأنكلستوما ، وبلغت نسبة الوفيات ٣١ فى الألف ، واعتمدت وزارة الصحــة مبلغ ٩٠٠ جنيه لإنشاء ١٥ حنفية مجانية للمياه

بمدينة القاهرة . وأصـــدرت وزارة المالية ــ لأول مرة ــ قراراً بمنع تصدير الذهب من مصر إلى الخـــارج . وأعلنت سكك حـــديد الحكومة المصرية عن امتيازات موسم الأقطان (١٩٣٨ ــ ١٩٣٩) تضمن : الأمان ، السرعة ، رخص الأجور ، لمواجهة الطلبات ، وتعد بأغطية جديدة من المشمع لوقاية الأقطان من الحريق والأمطار أثناء النقل . وكان ثمن الجريدة خمسة مليمات ، وصفحاتها من أربع إلى ثمانى صفحات ، وموادها ــ حتى العناوين ــ بالجمع اليدوى . ولأن عربات الحانطور كانت وسيلة ركوب رئيسية فى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية ، فقد كان لها تعريفة ركوب تبدأ بثلاثة قروش ونصف قرش للكيلو متر الواحد ، وتصل إلى ٨٥ قرشاً لليوم الكامل . أما أجور الحمير فكانت ١٢ قرشاً لليوم ، من شروق الشمس إلى غروبها . وأما التوجه إلى خارج المدينمة ــ مع عدم العودة ــ فكانت قيمته ١٨ قرشاً . وأعلنت محلات سمعان صيدناوى عن بيع القميص البوبلين الرجالى بسنة عشر قرشاً ، وحذاء السيدات ماركة " درمانا " بخمسة وخمسين قرشاً ، والمايوه ــ كان اسمه بدلة البحر ! ــ بثمانية عشر قرشاً . ونشرت الصحف إعلانات

قضائية ، من مثل بيع منقولات منزلية ملك فلان الفلانى وفاء لمبلغ ٨٠ قرشاً كطلب فلان افندى علان التاجر ، فعلى راغب الشراء الحضور . واخترع المجاهد الغيور حضرة عبـــاس افندى عبد الرحمن وسيلة ناجعة لمحاربة المنكر ، فعمد إلى تصوير نواحى المنكـــر فى لوحات خاصة ، يصدرها تباعاً ، ويوزعها على الجمهور بثمن زهيد ، لا يكاد يعدل شيئاً من قيمتها العملية فى تهذيب النفوس ، وبث مكارم الأخلاق . وكانت لوحته الأولى فى مكافحة الخمر ، وعنوانها " من الحانة إلى المسجد " ، وقد تشرّف برفعها إلى الأعتـــاب الملكية فحازت القبول السامى . وأقيم ــ لأول مرة فى تاريخ الحركة النسائية ــ مؤتمر نسائى عربى لمساندة الشعب الفلسطينى ، حضره وفود من عدة اقطار عربية ، من بينها فلسطين . ولعله يكفى للتدليل على فقدان الإحساس الحقيقى بفداحة المأساة ، أن برنامج المؤتمر كان يشتمل على بعض المحاضرات التى تعبر عن تعاطف النساء العربيات مع القضية الفلسطينية بعامة ، والمرأة الفلسطينية على وجه الخصوص . وكان يشتمل ــ فى الوقت نفسه ــ على زيارة لأهرام الجيزة وحديقة الحيوان واستديو مصر

للتمثيل والسينما والمتحف المصرى ودار الآثار المصرية والقناطر الخيرية وبعض المصانع ، وتناول الغداء بمطعم الحاتى ، وحضور حفلات شاى وحفلات ساهرة ، اختتمت بحفلة غنائية أحيتها بلبلة الشرق الآنسة أم كلثوم بدار جمعية الاتحاد النسائى المصرى ، لصالح منكوبى فلسطين . وتقدمت ثالث فتاة مصرية ــ زهرة رجب ــ لأداء امتحان الحصول على اجازة الطيران من مدرسة شركة مصر للطيران . وأعيد ترميم قلعة قايتباى بالإسكندرية ، وصدرت رواية العقاد اليتيمة " سارة " ، ورواية الحكيم " عصفور من الشرق " ، وكتاب حسين فوزى " سنادباد عصرى " . وأصدر طه حسين كتابه المهم " مستقبل الثقافة فى مصر " دعا فيه إلى تواصل الثقافة المصرية بثقافات دول البحر المتوسط . كان رأى طه حسين أن مشروعنا المستقبلى للثقافة يجب أن يرتبط بالحضارة الغربية ، يتجه إليها ، يتلاحم فى نسيجها ، وأن تلك كانت هى الصورة الأوضح من ارتباطه بصور أخرى ، مع حضارات أخرى ، وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا فى كل مايتصل بالحياة العقلية والثقافية . وأصدر محمد فريد وجدى دائرة معارف

القرن العشرين ، وبدأ أحمد أمين تأليف كتابه " قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية " ، واعتزل عبد الرحمن شكرى وظائف الحكومة ، وولدت مجموعة ممتازة من المبدعين المصريين ــ ضياء الشرقاوى ، الذى اختطفه الموت قبل أن يهبنا كل مالديه ــ ومحمد مستجاب ومجيد طوبيا والدسوقى فهمى ومحمود بقشيش . وتوفى والد عميد الرواية العربية نجيب محفوظ ، وقد استمد منه ــ فيما بعد ــ الملامح الأساسية لشخصية أحمد عبد الجواد ، ومات الكاتب الروسى العظيم مكسيم جوركى ، والموسيقى المصرى الرائد كامل الخلعى ..

كان العالم يواجه ردّة رجعية ، تمثلت ــ فى بعض أبعادها ــ فى كبت الطاقات الفنية الخلاقة ، وتحطيم تماثيل بارخ ، وتمزيق صور رينوار وماكس أرنست ، وحظر مؤلفات فرويد ، وتسمية معظم الفنون باسم واحد ، هو الفن المنحط . وفى مواجهة تلك الردة ، وجه أندريه بريتون ــ رائد الحركة السوريالية ، نداءه الثورى " من أجل فن حر مستقل " . وكان رد فعل جماعة من الفنانين المصريين الشبان لنداء بريتون ، اصدار بيان فى ٢٢ ديسمبر ، وقع

عليه رمسيس يونان وفؤاد كامل وكامل التلمسانى وأنور كامل وآخـــرون . وكان عنوان البيان : " يحيا الفن المنحط " !. وكان البيان نواة تكوين جماعة " الفن والحرية " فى التاسع من يناير ١٩٣٩ . وفى ٨ فبراير أقامت الجماعة أول معارضها الفنية . وقالت نشرة المعرض : " فى الوقت الذى لا يهتم فيه الناس فى العالم أجمع إلاّ بأصوات المدافع ، نجد أنه من الواجب علينا أن نعطى لتيار فنى معين فرصته ، ليعبر عن حريته وحيويته " . وقد التزمت الجماعة بالوقوف ضد الحرب ، فى محاولات عضو الجماعة البير قوصيرى القصصية ، واشتراك عضو الجماعة جورج حنين فى مؤتمرات السلام ببروكسل فى ١٩٣٧ ، ومهاجمة رمسيس يونان قوى الفاشية على صفحات " المجلة الجديدة " . كما أصدر جورج حنين أول دواوينه " لا معقولية الوجود " . وكتب سلامة موسى ينتقد حياتنا الموسيقية والغنائية ، ويطالب بموسيقا وغناء ورقص تبعث فينا النشاط والتحفز والمرح . وعاد العظيم بيرم التونسى ــ خلسة ــ من منفاه . وأذاعت محافظة العاصمة نشرة على أقسام البوليس التابعة لها ، تطلب فيها مواصلة البحث عن الأستاذ محمود بيرم

التونسى ، الزجال المعروف ، الذى تمكن من دخول المملكـــة المصرية . ومنحت الحكومة الفرنسية الكاتب الكبير توفيق الحكيم وسام " أوفيسيه دى كايمى " تقديراً للنجاح الذى لقيته الترجمة الفرنسية لعودة الروح وشهرزاد . وأنعمت الحكومة اللبنانية على الموسيقار محمد عبد الوهاب بنيشان الاستحقاق اللبنانى " تقديراً لخدماته المتوالية للنهوض بالموسيقا الشرقية ، وصناعة السينما فى الشرق " . واحتفل طلبة كلية الآداب (لم تكن هناك سوى جامعة واحدة هى فؤاد الأول) بالدكتور طه حسين ، لحصوله على الدكتوراه الفخرية من جامعة ليون بفرنسا . وصور كمال سليم فيلمه الأشهـــر " العزيمة " بطولة فاطمة رشدى وحسين صدقى . وبدأ تصوير فيلم " وداد " لأم كلثوم . وعرضت سينما استديو مصر فيلم " لاشين " الذى يعالج احدى فترات العصر المملوكى . ومن الأفلام العربية " سلامة فى خير " بطولة نجيب الريحانى وروحية خالـــد وحسين رياض وراقية ابراهيم وشرفنطح ، و " يحياالحب "لعبد الوهاب وليلى مراد ، و " أنـــا طبعى كده " بطولة فؤاد شفيق وزوزو شكيب ، و " ساعة التنفيذ " بطولة يوسف وهبى وأمينة رزق .

وعرضت سينما الكوزوموجراف بالإسكندرية رواية على الكســـار " عثمان وعلى " . ومن أغنيات العام : يامين يجيب لى حبيبى   وياخد من عينيـــه عين . وقدمت الراقصة تحية محمد (كاريوكا) بعض رقصاتها فى مسارح أوروبا . كما رقصت فى حضرة كمال أتاتورك ، فتعاقدت بعض الفرق الأجنبية معها كراقصة أولى ..

ومن الأحداث الثقافية العالمية : كتب جان بول سارتر أولى رواياته " الغثيان " ، وأصدر صمويل بيكيت مجموعته القصصية " مورفى " ، وكتب ألبير كامى رائعته " كاليجولا " ، وفازت الأمريكية بيرل باك بجائزة نوبل فى الآداب ، لتصبح رابع امرأة تنال الجائـــزة العالمية ، وانتخب أندريه موروا عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، وعرضت سينما النصر (تريامف) فيلم " سباق برودواى " بطولة وارنر باكستر وميرنا لوى ، وهو فيلم تجعلك مناظره " ترتجف وتقشعر ، وتجعل أسنانك تصطك " ، وقام كارى جرانت وكاترين هيبورن ببطولة الفيلم الجديد " الأجازة " ، ومن نجوم السينما العالمية : مارلين ديتريش وجارى كوبر وجورج برانت وكاى فرانيس وبول مونى وآن ديفوراك ..

أما المواسم والأعياد الرسمية التى عطّلت فيها مصالح الدولة المصرية ، وأخذ الناس اجازات ، فهى الاحتفال بالكسوة الشريفة (النصف الأول من ذى القعدة ١٣٥٦) وميلاد الملك فاروق (١١ فبراير) والاحتفال بسفر المحمل الشريف إلى الأقطار الحجازية (النصف الثانى من ذى القعدة) . وكانت الكسوة المصرية تنقل إلى الحجاز فى موكب رسمى ، تزفه كتائب من الجيش المصرى ، حتى سمى الجيش إلى قيام ثورة يوليو : جيش المحمل !.. والوقوف بعرفات ــ وقفة العيد الكبير (٩ ذى الحجة) تليها أيام عيد الأضحى (من ١٠ إلى ١٣ ذى الحجة) ثم الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية (أول محرم ١٣٥٧) أما ١٥ مارس فيتضمن مناسبتين ، الأولى يوم استقلال مصر فى ١٩٢٢ ، ويوم افتتاح البرلمان المصرى فى ١٩٢٤ . واحتفل بعودة المحمل الشريف من الأقطار الحجازية فى النصف الأول من محرم ١٣٥٧ . كما احتفل بذكرى ارتقاء الملك فاروق فى ٢٨ ابريـــل ، وبيوم شم النسيم فى ٢ مايو ، وبالمولد النبوى الشريف فى ١٢ ربيع الأول ، وبوفاء النيل ــ جبر البحر ــ فى النصف الثانى من أغسطس . أما وقفة

العيد الصغير ففى ٣٠ رمضان ، تليها أيام عيد الفطر الثلاثة . أما المواسم الإسلامية الخاصة ، والتى احتفلت بها وزارة الأوقاف العمومية ، فضلاً عن الأغلبية المسلمة من المصريين ، فهى : ليلة عاشوراء (١٠ محرم) وليلة الإسراء والمعراج (٢٧ رجب) وليلة النصف من شعبان (١٥ شعبان) وليلة أول صوم رمضان (أول رمضان) وليلة القدر (ليلة نزول القــرآن الكريم فى ٢٧ رمضان) . وأما المواسم والأعياد غير الرسمية ، والتى تعد أعياداً خاصة ، فلم تعطل فيها مصالح الدولة ، فهى : عيد الختان (رأس السنة للغربيين فى أول ينايــر) وعيد الغطاس للشرقيين والأحباش (٧ يناير) وعيد رأس السنة " جوليانة " للشرقيين (١٤ يناير) وعيد الغطاس للشرقيين ، وعيد الميلاد للأرمن الشرقيين (١٩ يناير) وثلاثاء الزفر ــ رفاع الصوم الكبير للغربيين (٩ فبراير) وأربعاء الرماد ــ الصوم الكبير (١٠ فبراير) وتذكار القديس داود للغربيين (أول مارس) وتذكار القديس باتريك للغربيين (١٧ مارس) والشعانين الكبرى للغربيين (٢٦ مارس) وعيد الفصح لليهــود (٢٧ مارس) وللغربيين (٢٨ مارس) وثانى عيد الفصح

للغربيين (٢٩ مارس) والفارق هنا أن أول عيد الفصح تعطّل فيه المحاكم المختلطة ، أما الثانى فهو يوم عطلة فى البنوك ، وعيد البشارة للشرقيين (١٧ ابريل) والشعانين الكبرى للشرقيين (٢٥ ابريل) وخميس العهد الجديد للشرقيين (٩ ابريل) والجمعة المقدسة (٣٠ ابريل) وعيد الورد للأروام (أول مايو) ــ لم يكن قد بدأ الاحتفال بالعيد العالمى للعمال فى الأول من مايو ــ وعيد الفصح للشرقيين والأحباش (٢ مايو) وخميس الصعود للغربيين (٦ مايو) والسبوعات ــ عيد العنصرة لليهود (١٦ مايو) وعيد العنصرة للغربيين (١٦ مايو) وثانى يوم العنصرة للغربيين (١٧ مايو) وخميس الصعود للشرقيين (١٠ يونيو) وعيـــد العنصرة ، وآخر الخماسين للشرقيين (٢٠ يونيو) وثانى يوم العنصرة (٢١ يونيو) والفارق أن اليوم الثانى أجازة فى البنوك ، وتذكار القديس يوحنا الرسول الإنجيلى للغربيين (٢٤ يونيو) وعيد انتقال العذراء للغربيين (١٥ أغسطس) وعيد انتقال العذراء للشرقيين (٨ أغسطس) وعيد رأس السنة لليهود (تشرى ٥٦٩٨) وعيد رأس السنة للقبط (توت ١٦٤٥) وصوم الكبور ــ عاشوراء لليهود (

١٥ سبتمبر) وعيد سكوت " المظلة " لليهود (٢٠ سبتمبر) وليلة الإسراء للمسلمين (٢٧ رجب) وليلة النصف من شعبان للمسلمين (١٥ شعبان) وتذكار جميع القديسين للغربيين (أول نوفمبر) والاحتفال برؤية هلال رمضان للمسلمين (٢٩ شعبان) وأول صوم رمضان (أول رمضان) وميــلاد سمو ولى الأمير محمد على ولى عهد المملكة المصرية (٩ نوفمبر) ويوم الهدنـــة للحرب العظمى (١١ نوفمبر) وليلة القدر (٢٧ رمضان) وعيد الميلاد للغربيين (٢٥ ديسمبر) وثانى يوم عيد الميلاد " بوكسنج " (٢٦ مارس)

أما خريطة العالمين العربى والإسلامى فكانت تشتمل على : مصر وملكها هو فاروق الأول ، والعراق وملكها غازى الأول ، وجمهورية تركيا التى يرأسها عصمت اينـــونو ، وايران وامبراطورها رضا شاه بهلوى ، والدولة السعودية وملكها عبد العزيز آل سعود ، واليمن وإمامها يحيى حميد الدين ، وجمهورية لبنان ويرأسها اميل إدة ، وجمهـــورية سوريا ويرأسها هاشم الأتاسى ، وفلسطين وكانت خاضعة للاحتلال البريطانى ، وإمارة شرق الأردن

وأميرها عبد الله بن الحسين ، وتونس وسلطانها أحمد بن علي ، ومراكش وسلطانها محمد بن يوسف ، وطرابلس وبرقة ــ ليبيا ــ وكانت مستعمرة ايطالية ، والأفغان وملكها محمد ظاهر شاه ، وألبانيا وملكها أحمد زوغو ، وزنجبار وسلطانها خليفة بن حرب البوسعيدى ، وإمارات الهند الإسلامية : حيدر أباد ، بهابور ، بهوبال ، رامبور . أما فى جنوب اليمن ، فثمة سلطنة لحج ويتولى حكمها عبد الكـــريم الفضل العبدلى ، والشحر والمكلا ويتولاها صالح القعيطى ، وحضرموت ويتولاها جعفر الكثيرى . وفى خليج العرب : سلطنة مسقط وعمان ويتولاها سعيد بن تيمور ، ومشيخة دبى وأميرها سعيد بن مكتوم ، ومشيخة قطر وأميرها ابن ثانى ، ومشيخة البحرين وأميرها حمد آل خليفة ، ومشيخة الكويت وأميرها أحمد الجابر ، بالإضافة إلى جاوة ، وجزر الهند الشرقية ، والملايو ، وعدد من الإمارات الإسلامية الخاضعة لانجلترا وهولندة ..

وبلغ عدد المصريين الذين أمضوا أجازة الصيف فى لبنان سبعة آلاف شخص . وكتبت مجلة اسلامية أن " المصريين قد انتبهوا أخيراً إلى قضية فلسطين بعد طول

تهادن " ، بعث الفكرة فيهم أبناء الأزهر الشريف ، وهم ــ كما قال شوقى رحمه الله ــ قطب السياسة المصرية ومحورها منذ دخلها نابليون . وألقى حاييم وايزمان رئيس الوكالة اليهودية العالمية خطاباً فى القدس أكد فيه أن اليهود يفضلون الاستقلال على قسم من فلسطين ، على أن يكونوا أقلية فيها كلها ، " أما الوصول إلى أكثرية يهودية فى فلسطين كلها ، فهذا لا يمكن التفكير فيه " . وظهر البترول ــ للمرة الأولى ــ فى الكويت ، وأعلنت المملكة العربية السعودية عن اكتشاف البترول ــ بكميات تجارية ــ فى منطقة الإحساء ، واتخذت تركيا خطوات فعلية لضم لواء الإسكندرونة السورى ، ومات ــ فى العاشر من نوفمبر ــ مصطفى كمال أتاتورك منشئ تركيا الحديثة ، ومات الشاعر الإسلامى إقبال ، وتكررت المصادمات ــ فى الهند ــ بين السنة والشيعة ، بينما الهندوس يسفكون دماء المسلمين ، لا يفرّقون بين سنّى وشيعى ..

وفى الثلث الأخير من العام ، بدأت نذر الحرب العالمية الثانية . آلاف من جنود الاحتياط الفرنسيين اتجهوا إلى خط ماجينو ومناطق الحدود . هتلر يعلن فى بساطة : "

فليعط السيد بنيش الحرية لمقاطعات السوفييت ، وإلاّ ذهبنا نحن وأعطيناهم إيّاها " ، وفرنسا وانجلترا والاتحاد السوفييتى تهدد بدخول الحرب إذا تعرضت تشيكوسلوفاكيا للغزو النازى . وفى العام التالى ، بدأت الحرب ، واستمرت لأعوام ستة متتالية .

لقد شاهدت نهايات الحرب العالمية الثانية ، وخروج قوات الإنجليز من مصر ، وانتخابات الأحـــزاب ، ومظاهرات الطلبة ضد السراى والحكومة ، وتأثيرات الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ومحاصـــرة قوات الجيش سراى رأس التين حتى غادر الملك فاروق البلاد مساء الســـادس والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ، وكنت مع الواقفين فى ميدان المنشية وعبد الناصر يواجه طلقات الرصاص فى ١٩٥٤ ، ثم وهو يعلن تأميم القناة فى ١٩٥٦ ، وعشت عدوان ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ، وانتصار ١٩٧٣ ، وصلح ١٩٧٩ ..

والأيام تمضى ..

أبـــــــى

ماتت أمى قبل أن أبلغ العاشرة ، فأنا لا أذكر منها سوى ملامح كالأطياف . ومع أن ذكرياتى المحدودة والمحددة ، تضع أمى فى إطار القسوة ، فإنى أثق ــ الآن ــ أن الطيبة كانت هى السمة الأساسية فى شخصية أمى . ساعدنى على تفهم ذلك أحاديث أبى عنها ، وقراءاتى فى الرسائل التى كانت تبعث بها من دمنهور ــ مدينتها ــ إلى أبى فى الإسكندرية ، رسالتين ، وربما ثلاثاً كل يوم . كل رسالة تبدأ بالقول : " حبيبى الغالى لطفى افندى " ، أو " خطيبى العزيز لطفى بك " .. ويتصدر الرسالة ــ أحياناً رسم ، بأقلام ملونة ، لساعى بريد ، أو قلبين ، أو وردة ، أو كيوبيد بقوسه الأشهر . وكانت كلمات الرسائل بسيطة ومحبة وطيبة . وثمة ذكرياتى الشخصية المتناثرة ، بعد غربلتها من تأثيرات عقابها لتصرفاتى ، والذى بلغ ــ فى معظم الأحيان ــ حد القسوة ..

كان اللعب فى الشارع الخلفى يحتاج إلى وساطة من أبى ، حتى تعلن أمى موافقتها . وكانت نظافتنا اليومية

حرصها الدائم . أحكى لها عن توضئى فى جامع سيدى على تمراز . تهز رأسها فى غير اقتناع : أدخل اتشطف !..

وحين عانت مصر وباء الكوليرا فى ١٩٤٧ ، كان من بين الإجراءات التى اتخذتها وزارة الصحة فتح أبواب حمام الأنفوشى لتلاميذ المدارس ، والعاملين فى الميناء والمصالح الحكومية بحى الجمرك . كان التلاميذ ــ والعمال ــ يذهبون فى طوابير إلى الحمام . يسلّم كل واحد ثيابه ، ويتسلم قطعة صابون ، ويغسل جسده جيداً بالماء الساخن ، ليحل آخر مكانه ، ويحصل ــ عند انصرافه ــ على ثيابه بعد تعقيمها . وجدت أمهاتنا ذلك التصرف أمراً معيباً : هل نعانى القذارة ، بحيث نذهب ــ قسراً ــ إلى الحمام العمومى ، فنغتسل ونطهر ثيابنا ؟! ..

تفتق ذهن صديقى وجارى عادل الصبروتى عن حيلة بارعة : لماذا لا نستغل رفض الأمهات فى الفرار من الواجبات التى ينتهى عدم مذاكرتنا لها بعلقة ساخنة ؟.. وألفنا الادعاء أن المدرسة ستنظم لنا فى الغد زيارة إلى الحمام . وألفنا كذلك أن ترفض أم الصبروتى ، وأمى ، خروجنا من البيت : ماذا يظننا هؤلاء الناس ؟.. وكنا ــ بدلاً من أداء

الواجب اللعين ــ نزجى النهار فى لعب متواصل ، على بسطة السلم !

كنت " شيئاً " ينبض بالشقاوة والعفرتة . أحطم مايصادفنى ، وأشارك الأولاد مشاغباتهم لخلق الله . وكان الجيران يشكون لأمى ، فتضربنى وهى تصيح : أموتك .. ولا تطلعش مجرم !.. يتملكنى الضيق ، وأتساءل : هل تكرهنى ؟! .. وكانت أمى تشـــدد علينا ، فنعود عقب آذان الفجر مباشرة ، وقبل أن يضئ عفريت الليل مصابيح الغاز بعصاه الخشبية الطويلة ..

ويوماً ، شارك أخى أبناء الجيران معاكساتهم لعم سيد ساكن الشقة العلوية : ياراجل ياعجوز .. مناخيرك قد الكوز ..

ومع أنى عزفت عن المشاركة ــ ربما لأنى كنت أتوقع عقاب أمى ــ فقد شكا الرجل الطيب لأمى " أولادها " . وبهمة غير منكورة ، قيدت سيقاننا ــ أخى وأنا ــ بحبل واحد ، ثم انهالت بعصا " التنفيض " ، لا تأبه بتوسلاتنا ولا صرخاتنا ، حتى أنقذنا ــ باستثارة أمومتها ــ جارنا الأعز عبده فرج الصبروتى !..

وماتت أمى ، وكبرت أنا ، وتزوجت ، وأنجبت . وكان من الطبيعى أن تعود الذكريات ، وتنشأ المقارنة ، وتتوضح معان كانت غائبة ، من بينها اشفاق الأبوين على مستقبل أبنائهما ، والفارق بين التدليل والإفساد ، والتعويد على الحياة السهلة ، أو تلك التى تحرص على القيم . كان الإشفاق والحنان والخشية من الانحراف ، هو الباعث وراء الإيذاء المتواصل من أمى ..

أدركت ذلك متأخراً ، وبعد فوات الأوان !

***

من الصعب أن أنسى ماعانته أمى من مناقشات حامية ، طرفها المقابل أهل أبى . كانوا يتحلقون حولها فى غرفة " العقاد " ، يعيدون عليها رأيهم بأن أبى أخطأ حين تزوج فلاحة !. ــ ألم يكن أصله القريب فلاحاً ؟! ــ وكنت أشفق على أمى جداً . مع أنى لم أكن أفهم من الخاسر ومن المنتصر فى تلك المعارك الكلامية ، فإنى كنت أشفق عليها لمجرد أنها تواجه ــ بمفردها ــ أربع أو خمس نسوة ، أتين إليها ليطرحن السؤال ــ مجدداً ــ كيف تزوجت أبى ؟!..

***

على الرغم من أنه قد مضى على وفاة أمى عشرات السنين ، فإنى أتذكر يوم رحيلها كأنه الأمس ..

كانت تعانى مرضاً فى القلب ، أضاف إلى تأثيراته حبها المسرف للنظافة . كانت تحرص على نظافتها الشخصية ونظافة البيت ، إلى حد الوسواس ..

رأساً على عقب ، لم أجد مايصدق فى التعبير عن هذا المعنى إلاّ فى حرص أمى على النظافة ، نظافة تكرر نفسها كل صباح إلى قرب المغرب ، فهى تبدأ فى تنظيف الشقة فور انصراف أبى إلى عمله ، وانصرافنا ــ أخوتى وأنا ــ إلى مدارسنا ، لا تكل ولا تمل ، فالكراسى توضع مقلوبة على ترابيزة السفرة ، وأرضية الحجرات تكنس ، وتمسح الصالة والطرقة بالماء والصابون والليزول ، والفوطة تجرى على كل ما فى البيت ، حتى السرير النحاسى فى غرفة نومها ، تطمئن إلى التماعه بعينين متفحصتين ، ورأس العبد ــ أداة نظـــافة مندثـــرة ! ــ تنفض التراب من الشبابيك والأسقف والجدران . يقرصنا الجـــوع ، فتسكته بسندوتش حتى تنتهى من عملية التنظيف اليومية . ربما جلسنا إلى طعام الغداء قبل المغرب أو بعده ، ولم تكن الخادمة تجد ــ

فى الأغلب ــ ماتفعله ، إلاّ مراقبة أمى وهى تحمل المنفضة ورأس العبد والجردل والخيشة .. وهات ياتنظيف !.. وربما أعادت مافعلته الخادمة بإهمال ، سواء أكان ذلك صحيحاً أم أنه ماكانت تتصوره أمى . وحين أسرفت أمى فى التشديد على الخادمة الجديدة أن تغسل كل شئ ، أقدمت الخادمة المسكينة على غسل الحلاوة الطحينية بالماء .. وبالطبع ، فأنت تعرف النتيجة !.

زاد المرض على أمى ، فلزمت الفراش . ألفت رؤيتها راقدة سنة كاملة ، يعودها جدى وجدتى وأخوالى من دمنهور ، ويعودها ــ أحياناً ــ أهل أبى . كانت فترات تعرّضها للإغماء تطول ، فيداخلنا القلق . لكن الطبيب المصرى الذى يسكن شقة الطابق الثانى ، ولقبه ــ فيما أذكر : النجار ــ حظى بيتنا بطبيبين ، كما ترى ، أرمنى ومصرى ، وإن لم تحل رعايتهما دون وفاة أمى فى سن باكرة ــ هذا الطبيب ، كان يبادر إلى إسعافها بما لم أتبينه من أدوية ..

فى ذلك اليوم ، وعقب عودتنا من مدارسنا ، نادت أمى على شقيقتى بصوت واهن ، وأوصتها بما لم أسمعه منها من قبل ، بأبى وبنا وبالبيت . وشددت على أهمية أن

ترعى أخـــى الأصغــر ، وكان فى عامه الثانى . واستمعت شقيقتى إلى نصائح أمى فى صمت ، لم تسأل أو تناقش ، وخمنت ــ فى وقفتى على باب الحجرة ــ أنها ــ مثلى ــ لم تفهم مما قالته أمى معنى محدداً . فلما قدم أبى من عمله ــ وكنت لا أزال فى مكانى على باب الحجرة ــ تحسس جبهة أمى بيده ، ليطمئن ــ فيما يبدو ــ على حرارتها ، فأخذت يده ، وقبلتها ــ لم أكن رأيتها تفعل ذلك من قبل ــ وقالت :

ــ سامحنى يالطفى ــ اسم أبى ــ أتعبتك بمرضى !..

وهون أبى الأمر عليها ، ودعا لها بالشفاء ..

ذهبت إلى الحجرة المطلة على الميناء الشرقية . تشاغلت بتأمل مراكب صيد المياس ، ورواد قهوة فاروق ، والقادمين إلى بحرى فى ترام رقم ٤ . ثم دخلت الشقة على أصـــوات متلاغطة ، وبدا الجميع مذهولين وهم يدخلون ، ويغادرون ، غرفة أمى . وقالـــت الجدة فى شقة الطابق الرابع ، انها كانت تجلس بجوار أمى ، تعودها ، لما انتفضـــت أمى ــ فجـــأة ــ وأشارت إلى مالم تتبينه العجوز ، وهتفت : ابعدوه من هنا !.. ثم سكت صوتها ، وجسمها ..

أمرنى أبى بالنزول إلى مردروس ، الطبيب الأرمنى بالطابق الأول . وصعد الطبيب السلم بخطوات متباطئة . وكان يقف ، فى كل طابق ، أمام النافذة المطلة على الشارع الخلفى ، ربما ليأخذ أنفاسه ، وكنت أدعوه ــ بينى وبين نفسى ــ إلى الإسراع فى الصعود ، كى ينقذ أمى ..

أطال الدكتور مردروس تأمل الجسد الساكن . كانت العينان جاحظتين ، والبطن منتفخاً بصورة ملحوظة ، والجسد بكامله متصلباً ، كأنه وضع فى قالب . مال الرجل على صدر أمى ، وباعد بأصبعيه بين الجفنين ، وضغط بقبضة يده على البطن المنتفخة ، ثم هز رأسه فى أسى : ماتت !..

وانطلقت صرخة من احدى الواقفات ..

قضينـــا ــ أخوتى وأنا ــ ليلتنا فى شقة الجيران المقابلة . وأصر أبى ــ فى الصباح ــ أن نذهب إلى مدارسنا . فلما عدنا ، ظللنا فى دكان عم عبد السلام الحلاق أسفل بيتنا ، فلم يؤذن لنا بمغادرته ، حتى شيعت الجنازة . ولازلت أذكر ارتجافة شملتنى حين رأيت قطعة الليف التى " غسّلت " بها أمى ، فى أرض الطريق ..

وقد انعكست مشاهد ذلك اليوم فى العديد مما كتبت .

***

داخلنى شعور بالراحة لوفاة أمى . كنت أسأل نفسى : لماذا تعاملنا بهذه القسوة ؟.. لماذا ترفض نزولنا للعب فى الشارع الخلفى ؟.. لماذا تضربنا عمّال على بطّال دون تثبت من الاتهامات التى نواجهها ؟..

ولعلى أذكر من بين ما خلفته أمى ــ دون أن تستعمله ــ مجموعة من الأحذية ، وقبعات أوروبية الشكل . أهمل أبى لعبنا بها ، فندس أقدامنا الصغيرة فى الأحذية ، ونتقافز متطوحين ، ونضع القبعات فوق رءوسنا ، أو نجعل منها سلالاً للعبنا الصغيرة وقطع الحلوى .

***

يصعب القول أنى تأثرت بأمى على نحو ما . فقد ماتت ــ كما رويت لك ــ قبل أن أجاوز التاسعة . ووجدت بعض الآراء النقدية فى رحيل أمى الباكر ، عاملاً فى غياب المرأة عن معظم ماكتبت ، وهى آراء تفتقد الموضوعية ، لأن مجتمع " الأسوار " يخلو من المرأة لطبيعة المجتمع نفسه ، فهو معتقل ، و" إمام آخر الزمان "

استلهمت واقعة ظهور المهدى فى ضوء العقيدة الشيعية الإمامية ، بحيث يغيب أى دور فعلى للمرأة . وكان رحيل زوج المتنبى آخر عهده بالمرأة . غابت المرأة حتى عن قصائده ، واتفق النقاد على أن غزليات المتنبى هى أضعف مافى ديوانه . لكن المرأة لم تغب عن " قاضى البهار ينزل البحـــر " و " قلعة الجبل " و " النظر إلى أسفل " و " الصهبة " وعشرات القصص القصيرة ، بحيث يصعب التأكيد على غياب المرأة عن أعمالى بصورة قاطعة .

***

مع أن أبى (١٨٩٧) من مواليد قرية " بركة غطاس " التابعة لمركز أبو حمص ، التابع لمديرية البحيرة ــ محافظة البحيرة الآن ــ (شملتنى فرحة غامرة عندما قرأت فى كتب التاريخ أن قرية أبى " بركة غطاس " قد سدت مجرى الماء فيها ، كى تحول بين قوات نابليون والشرب منه ، وإن أحزننى ــ فى الوقت نفسه ــ أن جنود الفرنسيين عاقبوا أهل القرية ، بإحراق القرية ونهبها) . اللافتة الرخامية على باب حوش المدفن : مدفن حسن على جبريل ، تشى بأن انتقال عائلة أبى إلى الإسكندرية من بركة غطاس

حدث قديم . قال أبى إنه من مواليد الإسكندرية ، وأن بركة غطاس هى قرية جده ، وإن لم يحدد ترتيب هذا الجد فى شجرة العائلة . ومع أن حل الأوقاف الأهلية قد أظهر فى شجرة عائلتنا جداً اسمه " قاضى البهار " ترك أراض وعقارات فى باب الشعرية وأطفيح وكوم حمـــادة ومناطق أخرى فى مصر ، ومع أن أبى كان يعتز بانتمائه إلى الإسكندرية التى نشـــــأ فيها ، وعمل ، وتزوج ، وأنجب أبناءه .. مع ذلك ، فإن الجد القديم لعائلتنا " جبريل " ــ كمـــا روى لى أبى ــ ربما أتى من إحدى دول المغرب العربى . والملاحظ ــ بالفعل ــ أن العديد من عائلات الإسكندرية وفدت من المغرب العربى ، سواء بالطريق البرى ، عبر صحراء ليبيا ــ لوبيا ، اسمها قبل الخمسينيات ــ أو بالسفن من طريق البحر

لكن وعيى تفتح على الإسكندرية . شهدت طفولتى ونشأتى وصباى ومطلع شبابى ، وهى صورة " الموطن " فى ذاكرتى ، وهى المكان الذى تخلقت فيه ــ حتى الآن ــ غالبية أعمالى ، وبالذات : هذه المنطقة مابين المنشية وسراى رأس التين ، تضم المرسى أبو العباس والبوصيرى

وياقوت العرش وعلى تمراز والميناء الشرقية وحلقة السمك والسيالة والصيادين والمسافرخانة والحجارى والموازينى وشارع الميدان وسراى رأس التين إلخ .. فى هذه المنطقة ، مارس أبطال قصصى حيواتهم : سكنوا البيوت ، وتنقلوا فى الميادين والشوارع والأزقة ، جلسوا على شاطئ الكورنيش ، قضوا الأمسيات فى حدائق رأس التين ، عاشوا اللحظات الهانئة ، والقاسية ، اصطادوا بالسنارة والجرافة والطراحة ، واصطادوا المياس ساعات العصارى ، ترقبوا النوات وعانوا تأثيراتها ، بدءاً باختطاف الرجـــال فى البحر ، إلى توضح الكساد فى ملازمة البيوت ، أو شغل الوقت بالجلوس على القهاوى ..

***

كان أبى حريصاً على الزى الكامل : البذلة والكرافتة والطربوش والحذاء المغلق . لا أذكر أنى شاهدته يوماً يرتدى قميصاً أو صندلاً ، أو أنه يغادر البيت ، أو يأتى إليه ، بلا طربوش . ومع أن الطربوش لم يعد زياً رسمياً منذ العام الأول للثورة ، فإن أبى ظل حريصاً على ارتدائه ، ودفعت ــ أحياناً ــ ثمن حرصه . تحول الغالبية من

أصحاب محال الطرابيش إلى مهن أخرى . وكنت أنتظر بالساعتين أو الثلاث ، حتى ينتهى " الطرابيشى " الوحيد الذى ظل على ولائه لمهنته فى حينا ، فى امتداد شارع اسماعيل صبرى بعد تقاطعه مع شارع الميدان . كان يستقبل طرابيش هؤلاء الذين عز عليهم أن يتخلوا عن أغطية رءوسهم ، حتى لو فعل الآخرون ذلك . أرقب الرجل وهو يضع الطربوش فى قالب النحاس ، ويرِشّه بالماء ، ويضعه فوق النار ، وفوقه المكبس . فإذا انتهى كى الطربوش ، ركّب الرجل له الزر ، وانتقـــل إلى سواه . وفيما أذكره من بقايا أعوام الحرب ، فقد كان أبى يوافق على نزول أمى وأختى إلى المخبأ عندما تنطلق صفارة الإنذار ، بينما يرفض نزولى وأخى الأكبر ، فنحن رجال . يأمرنا بالبقاء فى السرير ، ويطفئ النور ، ويقف بالقرب منا ، يتلو آيات من القرآن الكريم وأدعية ، ويكلمنا ، ويسلّينا ، ويـــروى بعض ذكرياته التى لا تتصل بلحظات الغارة . ولم تكن كلمة " الخوف " تأتى على لسانه .

وكان أبى يرفض أن نحدد المكان الذى نخرج إليه : الشارع الخلفى أو جامع المرسى أبو العباس ، أو كورنيش

الميناء الشرقية ، وإن اشترط أن نذكر المكان الذى كنا فيه حين يفاجئنا بالسؤال ، فلا تكذب . وكان ذلك دافعاً لأن نحاذر فى تصرفاتنا ، لا نذهب إلى مكان نضطر لإنكاره إذا سئلنا : أين كنا ؟..

***

تنقل أبى بين العديد من الشركات ، ربما لأن المؤسسات الخاصة لم تكن تعطى ــ حين يتركها الموظف ــ سوى مكافأة نهاية الخدمة ، فلا تأمينات ولا معاشات . وثمة بطاقة لأبى ــ مازلت أحتفظ بها ــ كتب فيها ثلاثة مواعيد لثلاث شركات ، كان يعمل فيها من التاسعة إلى الحادية عشرة صباحاً ، ومن الحادية عشرة والنصف إلى الواحدة والنصف بعد الظهر . أما الموعد الثالث فهو من الرابعة إلى السادسة مساء . وكان يترجم ــ فى البيت ــ لشركات أخرى ..

كان يتقن ــ كتابة وكلاماً ــ الإنجليزية والفرنسية والتركية والإيطالية واليونانية والألمانية . زاد من تعمقه فيها أنه كان يترجم من كل لغة إلى الأخرى . فلما اشتد مرض الربو على أبى ، تصرّف كالربّان الذى أوشكت سفينته على

الغرق ، فهو يتخفف من معظم ماتحمله السفينة لكى يحول بينها وبين المأساة . وقد " تخفف " أبى من الأعمال الإضافية فى البيت . ثم لحق ذلك بالاستقالة من إحدى الشركات . ثم استقال من شركة ثانية . ثم أجبره اشتداد المرض على هجر عمله جميعاً ، ولزم البيت ..

وعشنا أياماً صعبة .

* * *

لم يكن أبى يكتفى بالتحدث عن المنفلوطى وطه حسين والعقاد والزيات والحكيم وهيكل والمازنى وغيرهم ، هؤلاء الذين أحبهم واقتنى مؤلفاتهم .. لكن أحاديثه امتدت ــ أحياناً ــ فشملت العديد من أدباء الإسكندرية الذين لم تضم مكتبة أبى أياً من مؤلفاتهم ، ربما لأن غالبيتهم لم يصـــدروا كتباً ، أو لأنه كان يكتفى بقراءة مقالاتهم فى " البصير " و " السفير " وغيرها من صحف الإسكندرية . تحدث عن عبد الحميد سالم وعبد اللطيف النشار وصديق شيبوب وخليل شيبوب وأحمد زكى أبو شادى واسماعيل أدهم ونقولا يوسف ويوسف فهمى الجزايرلى وفليكس فارس ومفيد الشوباشى .. فلم أكن أعرف إلاّ أنهم أدباء من مدينتى ، لم يتح لى ــ أيام

صباى ــ أن أقرأ لهم ، وإن أفلحت ــ فيما بعد ــ فى أن أقرأ لهم قليلاً ، وأقرأ عنهم كثيراً . ثم جمعتنى الصداقة والتلمذة بالنشار والشوباشى . تعرفت إلى الأول فى مكتبه بســـراى الحقانية ، ومجلسه المختار فى بار قديم بشارع البوستة ، خلف ميدان المنشية . وقرأت للثانى ترجمته لمسرحية ستيفان زفايج " إرميا " . أعجبت بها كعمل فنى ، وإن غابت عنى أهدافها الصهيونية المعلنة . فلما توضحت لى الأمور ــ فيما بعد ــ تحدثت إلى الشوباشى فى شقته المطلة على شارع المساحة ، عن شكوكى القديمة فى أهداف مسرحية زفايج ، والتى أصبحت ــ بعد أعوام قليلة ــ يقيناً كاملاً . ووافقنى الرجل الطيب على الشك ، وعلى اليقين ، وأكد أنه لم يكن يدرك حجم المخطط الصهيونى عندما قبـــل ترجمة المسرحية ، فلم تكن التطورات الساخنة للقضية الفلسطينية قد لاحت فى الأفق القريب . ثم طلب ــ فى أبوة نبيلة ــ أن أهمل الإشارة إلى المسرحية ، كأنها لم تترجم ، وكأنى ــ بالتالى ــ لم أقرأها !..

عموماً ، فسأحدثك عن النشار والشوباشى ــ كيف تتلمذت عليهما ــ فى مناسبة قادمة

* * *

لعل اهتمامات أبى ــ حين أتذكرها الآن ــ كانت تؤهله لأن يصبح كاتباً . حوت مكتبته آلاف المجلدات ، أفدت منها ، وكانت بداية تعرّفى إلى الثقافة كاهتمام ، وإلى الأدب كقضية حياة . وكان عمل أبى ــ كمترجم ــ قد أتاح له الاطلاع على الكتب فى مصادرها . حتى الصحف الأجنبية مثل " البورص " و " الاجبشيان جازيت " و " البروجريه اجبسيان " كنت أجدها ضمن صحفه اليومية . كان يكلفنى بشرائها من بائع الصحف على ناصية شارع التتويج واسماعيل صبرى (تعرضت ــ بسبب ذلك ــ لعلقة ساخنة من بعض الصبية ، لا زلت أتذكر تأثيراتها على جسدى الصبى ــ آنذاك ــ فقد كان الصراع العربى الصهيونى فى احدى ذرى تفاقمه ، عندما اشتريت لأبى مجموعة الصحف ذات صباح . وبعفوية ، ثنيت الصحف بحيث كان ظاهرها مكتوباً بالفرنسية أو الإنجليزية . وهتف صبى : خواجة !. والتف الأولاد حولى ، كلّ يحاول تأكيد شعوره الوطنى بمقدار مايوجهه لى من ضربات ولكمات) . وقد حرص أبى على تسجيل مذكراته اليومية ، روى فيها ــ

بأسلوب جيد للغاية ــ تطورات حياته ، وتطورات حياتنا أيضاً ، منذ حملت بنا أمّنا ، حتى خرجنا إلى الوجود ، وماعانيناه من أمراض ، وما أنفق علينا من مصاريف ، ومقدار استجابة كل منا لاختبارات الذكاء التى كان يخضعنا لها بين حين وآخر ..

وذات يوم ــ أتذكره جيداً ــ كتب أبى مقالة عن الأوضاع الاقتصادية فى مطلع الخمسينيات ــ الفترة نفسها التى كتب فيها مقالته ــ ووضع المقالة فى مظروف ، وطالبنى بتسليمها إلى صديق له يعمل مديراً لمكتب " المقطم " بالإسكندرية . وسلّمت الصديق المظروف ، وتسلمت ــ بعد أيام ــ نسخة من الجريدة ، وطالعت ــ بحب ــ اسم أبى يلى عنوان المقالة ، ويسبق المقالة التى احتلت نصف عمود فى الصفحة الأخيرة ..

وكان أبى صديقاً لعدد من قادة الأحزاب وكبار المسئولين . ويحتفظ ببطاقات المعايدة والرسائل التى يبعثون بها إليه فى المناسبات المختلفة . خصص لها درجاً فى " بوفيه " صغير بحجرة نومه ــ هو الدرج الوحيد المغلق فى الشقة كلها ــ وكان يعتز بوطنية ابن عمه الصحفى الراحل

محمد عوض جبريل ، ويفتش عن مناسبة يتحدث فيها عن دور عوض جبريل فى أحداث ثورة ١٩١٩ ، والسلة التى طالما أخفى فيها القنابل ، وحملها إلى أفراد الجهاز السرى بقيادة عبد الرحمن فهمى ، فضلاً عن كتاباته ــ عوض جبريل ــ التى لم يتح لى قراءتها ، وإن أكد أبى أنها التزمت خطاً وطنياً مطلقاً . وكانت مناقشات أبى مع أصدقائه تتسم بالفهم والوعى والاجتهاد وحسن الإنصات وبساطة التعبير عن الرأى ، مهما يتجه إلى المخالفة .. أتذكر ذلك فى صورته الكلية ، البعيدة ، فأعجب لاكتفاء أبى ــ حتى وفاته ــ بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى ، دون أن يجاوز ذلك إلى الكتابة فى قضية ما تشغله ــ وما أكثر القضايا التى شغلته ــ أو ، فى الأقل ، يترجم بعض الموضوعات التى لا تتصل بعمله ، والذى تحـــدد فى أمور الاستيراد والتصدير ، والقضايا التجارية عموماً . كنت أرجو أن يعتز أبى بثقافته الواسعة ، واجادته الترجمة ، لكنه كان يعتبر ذلك كله جزءاً من طبيعة عمله ، فهو لابد أن يكون قارئاً جيداً ، لاتصال القراءة بالمجال الذى اختاره حرفة له ، والترجمة كذلك وسيلته لكسب العيش . وكما أن سائق السيارة " المحترف "

لا يباهى بأنه سائق جيد ، لأن ذلـــك هو مايجب أن يكون كذلك بالفعل ، فإن أبى كان يعتبر اللغات ضرورة لعمله ، كمترجم ، ولا يصح بالتالى أن يتباهى بإتقانها . لكن ماكان يعتز به أبى جداً ، ويلح فى تأكيده ، دوره فى مساعدة شركة " الجراية " للورق بأفكاره وجهده ، حتى تحولت من دكان صغير إلى مصانع ومخازن ومكاتب ، وأصبحت ــ فى أواخر الأربعينيات ــ أولى شركات الورق فى مصر ، ثم لحقتها فى ١٩٦١ قرارات التأميم ..

لكن اهتمامات أبى ، ومناقشاته ، مع الآخرين أو معى ، ومكتبته الضخمة ، كانت بداية انحيازى إلى الأدب ، حتى من قبل أن أتعرف إلى الأدب كتسمية . كنت أحيا بما يشبه اليقين أنى سأصبح أديباً ، أو لا أصبح شيئاً على الإطلاق . وضعت كل بيضى فى سلة واحدة . راهنت على المستقبل المحدد بكل مافى حوزتى ..

وقد انعكست شخصية أبى فى العديد مما كتبت : رواية " قاضى البهار ينزل البحر " ، وقصة " تكوينات رمادية " ، ذلك الأب الطيب الذى يعمل بالترجمة ، ويعانى الهموم نفسها التى يعانيها ملايين المصريين .

* * *

مع أنى أخبرت أبى باعتزامى أن أكون كاتباً ، ومع أنه كان يتابع ــ بإشفاق وخوف ــ انغماسى فى حرفة الأدب ، فأنا أعيد كتاباً فى مكتبته لأحصل على كتاب آخر ، لا أكاد أفرغ لمذاكرتى ، ومع أنـــه شاهدنى وأنا أكتب ، وأمزق ماكتبت ، ثم أكتب وأمزق ماكتبت .. مع ذلك فإن أبى أظهر عدم تصديقه بأن المحاولات التى عرضتها عليه من تأليفى . يذكرنى بما فعله والد بابلو نيرودا حين دفع إليه ابنه بمحاولته الأولى فى الشعر . تلقاها ــ والكلام لنيرودا ــ وهو شارد الذهـــن ، قرأها وهو شارد الذهن ، أعادها إلى الصغير وهو شارد الذهن ، وسأل : من أين نقلتها ؟. كان أبى يتصفح ما أكتبه بنظرة عابرة ، ثم يسأل فى عدم تصديق : بذمتك انت اللى كاتب الكلام ده ؟!

أصرخ : طبعاً يابابا ..

يهز رأسه : مش ممكن .. انت ابنى وانا عارف قدراتك !..

لست أدرى : ماذا كان يعنى أبى بأنه يعرف قدراتى ؟ وكيف استطاع أن يعرفها ؟ وهل كان يتصور أنى أنقل مما

أقرأ ؟.. معظم قراءاتى ــ وكتاباتى أيضاً ــ كانت فى غيبة منه ، ربما لو أنه لاحظ تقليبى فى مكتبته بحثاً عما أقرأه ، لمنعنى ــ خوفاً على الكتب ، واشفاقاً على وقت مذاكــرتى ــ وربما لو أنه لاحظ انشغالى بالكتابة إطلاقاً ، بحيث تأخرت هموم الدراسة إلى مرتبة تالية ، لنصحنى ــ فى الأقل ــ أن أعنى بدروسى !.

مع ذلك ، فإن أبى أصدر حكمه على قدراتى ، وانتهى الأمر . لم أحاول أن أناقشه ، لأنى كنت فى غاية الإعجاب بقراءاته وكتاباته ــ تلك التى تمثلت فى مذكراته اليومية ، أو فى ترجماته لمكاتبات العديد من الشركات ، مثل كورى للأقطان ، والجراية للورق ، وغيرها ..

أحياناً ، أسأل نفسى : لو أن أبى عاش ، هل كنت أظفر برضائه ؟.. هل كان يطمئن إلى ما أكتب بعد أن يعلم أنى أنا الكاتب بالفعل ؟.. وهل كان يغفر لى مناقشتى لبعض تصرفاته ، ورفضها فى بعض الأحيان ؟..

ذلك كله مما يصعب أن أقطع فيه ــ الآن ــ برأى . ولعل إصرارى ــ منذ البداية ــ على تأكيد سمات بعينها فى محاولاتى ، مبعثه ذلك السؤال الذى كان يواجه به أبى

ماأعرضه عليه من محاولات : بذمتك انت اللى كاتب الكلام ده ؟!..

***

كانت الفرنسية أحب اللغات الأجنبية إلى أبى . وعند موته كان قاموس الفرنسية مفتوحاً بالقرب منه . وأذكر أن المدرسة الأميرية الابتدائية كانت أول مدرسة حكومية تجعل من الفرنسية لغة ثانية ــ بعد العربية ــ كى لا تصبح للإنجليزية وحدها السيادة على التعليم الوطنى . ولأن أبى ــ كما قلت لك ــ كان يفضل الفرنسية على اللغات الأجنبية الأخرى ، ولأنه ــ فيما يبدو ــ قد اقتنع بهدف انشاء المدرسة ، فقد ارتكب جريمة ــ لا يحضرنى تعبير آخر ! ــ نقلى من مدرستى إلى المدرسة الجديدة . والتحقت بالمدرسة الأميرية فى منتصف العام الدراسى دون أن أعرف كلمة واحدة من الفرنسية . وظلت كأنها عقدتى الدراسية إلى شهادة الثقافة العامة ، فرسبت فيها بجدارة !..

حاول ــ فيما بعد ــ أن أقترب من الفرنسية ، أن أتعرف إليها ، وأذاكرها ، واصادقها ، تصبح هى لغتى

الثانية كما أراد أبى ، حتى استطعت ــ فى النهاية ــ أن أتقنها ..

***

لم أكن أعرف أن " اللوتارية " هى اليانصيب . التسمية يونانية ، واليونانيون هم الذين أدخلوا " اللوتارية " إلى مصر ، وإلى الإسكندرية تحديداً . مهنة رائجة فى اليونان ، نقلها معه أبناء الجالية اليونانية ، ربما كنوع من التكافل الاجتماعى فيما بينهم . ثم اتسعت الدائرة ، فأقدمت الهيئات والمؤسسات المصرية على إصدار أوراق اليانصيب لزيادة مواردها ، وتعالت فى شوارع الإسكندرية صيحات الباعة : الإسعاف .. المبرّة .. المواساة . كنت أكره اليانصيب ، وأكره حتى الباعة الذين كانوا يعرضون على أبى كل مابحوزتهم من أوراق ، يثقون أن توقع " الحظ " ، ومايتصل به ، يدفعه إلى شراء الأوراق . يضع بيدى حصيلة كل يوم ، عصر اليوم التالى ، لتبين ماإذا قد فاز بجائزة ما . وكنت أبدّل قدميّ من التعب فى وقفتى أمام دكان السجاير الصغير بشارع التتويج . بيدى قائمة أوراق اليانصيب التى اشتراها أبى ، أراجعها على قوائم الأرقام ، أسماء غريبة ولا حصر

لها : الفراشة .. الذبابة .. الجعران .. النحلة إلخ ..أعود ـــ فى الأغلب ـــ بلا أرقام فائزة ، وأعود ـــ أحياناً ـــ برقم فاز بجنيهين أو ثلاثة . يعلن أبى فرحته بينما يكون قد دفع ثمناً للأوراق ـــ فى اليوم نفســـه ـــ عشرة جنيهات أو أكثر !..

كان اليانصيب ، أو " اللوتارية " مأساة نحياها ، ونعانى تأثيراتها السلبية القاسية ، لكنها تحولت فى حياة أبى إلى إدمان لايقوى على التخلص منه . وكان الجيران يشفقون من طوابير الباعة الذين يسعون للتخلص من كل مابحوزتهم من أوراق ، فيتسللون إلى شقتنا فى الطابق الثالث ، يتركون أبواب الشقق مفتوحة ليتاح رؤية الصاعدين إلى أبى ، وطردهم . وكان أبى يجد فيما يفعله الجيران تدخلاً معيباً فى حياته !

***

لست أذكر متى أصيب أبى بالربو . عايشت ـــ منذ طفولتى ـــ توالى الأزمات فى صدره . كان يتنفس بصعوبة ، ويطالبنا بفتح النوافذ لدخول الهواء ، فلا يهدأ صدره إلاّ بحقنة الأدرينالين ، أو قرص الإفيدرين ، وغيرها من أدوية الربو التى كان يبعث بى لشرائها من صيدلية الأسعاف

بشارع التتويج . كانت الأزمات متوالية ، وقاسية ، ينعكس تأثيرها ــ وتوقعاتها ــ على الوجوه ، ويتملكنا عجز حقيقى عن فعل أى شئ ..

هل عانى أبى ماعاناه نتيجة تناوله المستمر للقهوة ؟..

النصيحة الطبية تقول : إن الإدمان على تناول القهوة بشكل مستمر ، يومى ودائم ، وبكميات كبيرة ، يترك الكثير من الأضرار والعوارض المرضية ، فى مقدمتها اضطراب الجهاز العصبى فيثور مدمن القهوة لأتفه الأسباب ــ وكم عانينا من ثورات أبى ــ فضلاً عن عدم انتظام ضربات القلب ، وقلة النوم ، والحياة فى أسر قلق دائم ، إلخ . عرفت من الصور والمذكرات الشخصية التى خلفها أبى ، أنه كان يحاول العلاج من مرض الربو ، والفسحة ــ فى الوقت نفسه ــ بصيد البط فى كنجى مريوط (٣٥ كيلو متراً من الإسكندرية) أياماً تبلغ العشرة أحياناً ، ثم يعود بكتبه وأوراقه ومعدات صيده . وكان المعنى الذى يؤكده ــ عقب كل المرات التى زار فيها كنجى مريوط ، وإن تغيّرت الكلمات : تحسّن الحالة الصحيّة !..

وقد صحونا ــ ذات ليلة ــ على " صوات " أمى يعلن وفاة أبى . علت الأزمة فى صدره ، حتى اختنق تماماً ..

لم أكن أدرك معنى الموت ، وإن تملكنى خوف للكلمات والتصرفات التلقائية التى واجهت بها أمى الموقف ، فهى تصـــرخ فى عيوننا المبحلقة : أبوكو مات ياولاد !.. ونحن نقرض أظافرنا فى عصبية وانعدام حيلة ، وهى تلطم خدّيها فى تواصل ، ونحن نسلم أيدينا إلى الجيران ، يغلقون علينا باب الشقة المجاورة ، وهى تدفع الباب فى هستيريا : خلّيهم يشوفوا أبوهم ، ونحن نتلاصق فى خوف من المجهول .. ويحاول عم نجيب الدخاخنى ــ رب الأسرة المجاورة ــ إقناعنا بالنوم ، لكن الدقائق ، فالساعات ، تمضى ، والأصوات ــ فى شقتنا ــ عالية ، صاخبة ، متلاغطة ، والموت معنى كبير مخيف ، وإن غاب عنّا فهمه . ثم يفتح البـــاب فجأة ، وصوت أمى يسبق خطواتها : أبوكوا عايش ياولاد .. أبوكو عايش !.. وتقودنا الأيدى المترفقة إلى حيث أبى . كان قد استند بظهره إلى أعمدة الســـرير النحاسى . وبدا لنا المشهد غريبـــاً ، وغير مألوف . ألفنا رؤية أبى فى مقعده ، فهو ــ طيلة بقائه فى البيت ــ لا يكاد يغادره ،

ينشغل بأوراقه وكتبه وقواميسه التى شغلت كرسياً مجاوراً ، أو يعد لنفسه فنجان القهوة (نصحه الطبيب بأن يتناول مشروباً ساخناً ، ليحرك البصاق الساكن فى صدره ، فاعتبرها فرصة ، واكتفى بالقهوة مشروباً وحيداً ، يتناوله كل دقائــق !) أو يدير الكرسى المقابل ، فيسند ذقنه إليه ، وينام . كانت تلك ــ منذ وعيت ــ طريقة نومه ، فلا يغيّرها . بدا لى المشهد غريباً إذن ، فلم أكن رأيت أبى من قبل على السرير ، نائماً أو جالساً . وكانت محاولته لأن ينام ــ كما علمت ــ هى باعث الأزمة ، التى رأى فيها الموت فعلا !..

***

ربما كانت وفاة أمى التى صوتت قبل سنوات لوفاة أبى ، ومرض أبى الدائم ، والأزمة التى تصورت أمى أنه قد مات بتأثيرها ، فالأزمات التالية ــ فى حياة أمى ــ وبعد موتها .. هى باعث ترقّبى لرحيله . كان يكبرها بسنوات . وكانت أزمات الربو تتوالى على صدره المتعب ، فبدا لى دنو أجله فى الأفق القريب . وكنت أحدّق فى ذلك الأفق كل صباح ..

كانت الأزمة تفاجئه ، فيختنق ، ويستغيث بنسمة هواء ، أو تأتيه اغماءة ـــ ولعله كان ينام ـــ وهو سائر فى البيت ، فيسقط ، وكان دائم الحديث ـــ بإشفاق ـــ عن مستقبلنا .. وجعل ذلك كله وفاة أبى حدثاً فى قبضة اليد . أصحو ، فأطل من الباب الموارب ، أطمئن إلى نومه على الكرسى ، وأنفاسه التى تعلو بها حساسية الصدر . وإن حرصت فلم أظهر ذلك التخوف الدائم من أن يفاجئنا أبى ـــ يوماً ـــ بالرحيل . لم أصارح أخوتى ، ولا أى أحد .

ومع أن الأعوام طالت بأبى وهو يعانى أزمات المرض ، فإن تخوفى من رحيله ـــ المفاجئ ! ـــ ظل هاجساً أحيا فى إساره غالبية أيامى ، وأحرص على عادتى اليومية ـــ أصبحت عادة ! ـــ بالنظر من الباب الموارب إلى جلسته النائمة ، الثابتة ، على الكرسى !..

ثم مات أبى ـــ فعلاً ـــ فى يناير ١٩٥٥ . ولم يكن معه سوى شقيقى الأصغر . كان يراجع بعض المفردات فى قاموس الفرنسية ، عندما أدرك دنو الأجل . طلب من أخى أن يستدعى جارة لنا فى الطابق الأول . وصعدت الجارة ـــ اسمها ، فيما أذكر ، أبلة عزيزة ـــ لتسمل عينيه ..

وقد عانى أبى ــ فى أيامه الأخيرة ــ تربص الآخرين به ، فهم يحاولون قتله . يطمئن إلى اغلاق النوافذ والأبواب ، يتطلع ــ فى عز الليل ــ من خصاص النافذة إلى الطريق ، ويعطى انتباهه لكل صوت ، ويشدّد فى السؤال عن شخصية الطارق ، وطلب من شقيقتى أن تسأل ــ بعد وفاته ــ جار الطابق الأول عن السر الذى صارحه به أبى . وسألت شقيقتى الجار ، فاكتفى بالقول : ولا حاجة !. فلما ألحت شقيقتى فى السؤال ، قال الرجل ــ فى غير تصديق ــ أخبرنى أبوك أنه ربما لن يموت ميتة ربه ، فسيغتاله آخرون ..!

وكانت تلك الأحداث ــ فيما بعد ــ إطاراً لقصتى " تكوينات رمادية " .

قاضى البهار

عرفت اسم " قاضى البهار " ــ للمرة الأولى ــ عقب ثورة يوليو . ألغيت الأوقاف الأهلية ، فأصبح واجب المستفيدين أن يقدّموا إلى وزارة الأوقاف شجرة العائلة ، بحيث يتأكد قرابتهم إلى صاحب الوقف . وبادر عم لى (ابراهيم جبريل المهندس بمصلحة التليفونات آنذاك) إلى استخراج شجرة عائلة ، جذرها الأصلى هو زين الدين قاضى البهار جبريل ، صاحب الأوقاف التى أفادت منها عائلة جبريل ، بتوزع أغصانها وأوراقها لأجيال تالية ..

الأوقاف الأهلية ــ كما تعلم ــ هى " العين الموقوف ريعها لانتفاع أفراد عائلة ، على التعاقب ، شريطة أن يؤول هذا الحق ــ عند انقراض المستحقين ــ إلى غرض دينى أو خيرى " . وبالطبع ، فإن المستحقين لم ينقرضوا ، بل تضاعفوا ، وانتشروا فى الأرض ، وأقاموا فى المدن والقرى القريبة والبعيدة ، حتى تقطّعت الأواصر بين الفروع ، فلم تبحث عن الأصول إلاّ ندما كان ذلك البحث شرطاً لحصولها

على الأوقاف التى تركها ذلك الجد القديم : زين الدين قاضى البهار جبريل ..

وأذكر أن عمى ــ فى رحلة البحث عن الأصول ــ كان يروى لنا لقاءاته مع أفراد من عائلة جبريل ، لم يسمع ، أو يلتقى بهم ، من قبل ، أطباء ومهندسين وعمد وتجار وحرفيين وصغار موظفين . وبعد أن أتم شجرة العائلة تماماً ، توضّح له ــ ولأخوته ! ــ أن قاضى البهار قصر أوقافه على فرع واحد من العائلة دون بقية الفروع ، فلم يعد من حقهم أن يحصلوا شئ !..

مع ذلك ، فإن اسم " قاضى البهار " ظل فى ذاكرتى لا يغادرها ، يرتبط بقراءاتى المتنوعة فى كتب التراث ، بتصوراتى لنشأة عائلة جبريل : هل هى مصرية خالصة ، أو أنها ــ كما قال لى أبى ــ وافدة من احدى دول المغرب العربى ؟ ومالصلة بين جبريل فى الإسكندرية والســودان وبلاد العرب ؟.. ثم فرض الإسم نفسه ــ أخيراً ــ بطلاً متفرداً فى روايتى القصيرة " قاضى البهار ينزل البحر " ..

* * *

المؤكد أن قاضى البهار ليس مصرياً . والأرجح أنه وافد من المغرب . فى كتاب ابن عطاء الله السكندرى " لطائف المنن " نعرف أن من بين الأولياء الذين صحبوا أبا الحسن الشاذلى فى رحلته من المغرب إلى مصر ، الشيخ أمين الدين جبريل ، وله مثل بقية أصحاب الشاذلى ، علوم وأسرار وكرامات .. فهل يكون هذا الولى هو بداية آل جبريل فى الأرض المصـــرية ؟.. أو أن الأمر أسبق من قدوم أمين الدين جبريل إلى البلاد ؟.. أو أن جدنا قاضى البهار هو البداية للأمر كله ؟..

لعل أحد التخمينات هو الأصح ، ولعلها جميعاً خطأ ..

وفى حى باب الشعرية حارة بإسم " قاضى البهار . لا أدرى متى كانت التسمية ، ولا بواعثها .. هل لأن جدى العزيز كان يسكن فى الحارة ، أو بالقرب منها ، أو لأن عمله كان فى الحارة ؟..

الاحتمال الأول هو الأرجح ، لأن الأوقاف التى خلّفها جدى قاضى البهار ، اقتصر غالبيتها على حى باب الشعرية .

* * *

لاشك أن الوجود المغربى فى مصر سابق على العصور الحديثة . بالتحديد منذ قصد المغاربة مصر فى طريقهم إلى بيت الله الحرام ، فضلاً عن المكانة الدينية التى يمثّلها المشرق بصفة عامة ..

كان أول قدوم المغاربة إلى مصر عندما غزاها الفاطميون ، وقامت الدولة الفاطمية على أكتاف هؤلاء المغاربة . ويقول المقريزى إن جوهر الصقلى " لم يدع مالاً إلاّ جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه " (المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ص ٧٨) . وثمة تجار من المغرب والأندلس كانوا يأتون ــ عبر الأراضى المصرية ــ بتوابل الهند وطرائف السند والعراق إلى افريقيا والأندلس . ويجمع المؤرخون على أن أعداد الوافدين من المغرب والأندلس تزايدت فى أعقاب استيلاء النصارى على الأندلس . وكان من بينهم حرفيون وفنيون فى الصناعات المختلفة ، وتجار . وكان من الوافدين ــ منذ بدايات العصر الفاطمى ــ والأسماء مبثوثة فى كتب التراث : الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى ، أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على اللخمى الميورقى الشافعى ، أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى ،

أبو عبد الله محمد بن لب الشاطبى ، أبو الحسن على بن أحمد لالهوارى الفاسى ، أو عمران موسى بن عيسى الغجومى الفاسى ، أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتى ، أبو الوليد يوسف بن مفضل القذافى ، الشيخ أبو مدين الغوث ، أحمد بن عبد الله بن هشام بن الحطيئة اللخمى ، الحافظ محيى الدين أبو محمد عبد الواحـــد بن على التميمى المراكشى ، أحمد بن على الحسينى البدوى ، محب الدين محمد بن عمر رشيد السبتى ، عبد الرحمن بن خلدون ، أحمد بن المقرى التلمسانى ، أبو مدين شعيب بن عبد الرحمـــن الدكالى ، أبو الحسن على بن محمد الأخفش المغربى الشاعر ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن هانئ ، وعشرات غيرهم ..

ربما كان " قاضى البهار" واحداً من هؤلاء الوافدين . ولا أدرى ــ إن كان كذلك ــ هل كان شيعياً ، مثل كل المغاربة حينذاك ، أو أنه كان سنياً ؟!..

***

استمرت العلاقات الودية بين مصر والمغرب فى عهود المماليك . وظلت الإسكندرية ــ بالإضافة إلى موقعها

البرى ــ أهم محطة بحرية بين المشرق والمغرب . وكانت دائماً مهبط علماء المغرب والأندلس . ومن هنا كانت تسمية العرب للإسكندرية : بوابة المغرب ..

***

كانت فاس هى مدينة البداية للحجاج المغاربة إلى البيت الحرام ، فهل كان قاضى البهار ضمن ركب الحج الفاسى ــ نسبة إلى فاس ــ وتمييزاً له عن وفود ثلاثة أخرى من الجزائر وتونس وطرابلس ؟..

***

كانت الرحلة من المغرب إلى الإسكندرية ــ أو القاهرة مباشرة ــ خاصة من طرابلس ، عبر الصحراء الغربية ، هى أقسى مافى الرحلة عموماً ، ومدتها مابين خمسة وأربعين يوماً إلى ثلاثة أشهر . يقول أبو القاسم الزيانى : " لما نزلنا على مرحلة من مصر ، خرج أهل مصر لملاقاة الركب والتبرك بمباشرة الحجاج . ومن له قريب ، قدم له مركباً مزيّناً للوصول عليه للمدينة ، لأن مراكبهم لا تبلغ إلاّ ضعيفة من كثرة التعب والسهر وقلة العلوفة والماء ". كان طول مسافة الرحلة يحتم على

المسافرين قضاء فترات ، تقصر وتطول ، فى مصر ، انتظاراً للخروج مع قافلة الحج . الأمر نفسه فى رحلة العودة من الأقطار الحجازية . وربما تحولت الإقامة الطارئة ـــ بالمصاهرة أو بالتجارة ـــ إلى اقامة دائمة ، فى أعقاب رحلة الإياب ، وقبيل رحلة الذهاب . وكان الحجاج الذين يصلون الإسكندرية ، ينزلـــون ـــ مدة إقامتهم بها ـــ فى زاوية أبى محمد صالح ، ولهم فيها أوقاف . وثمة من كان يفضل الإقامة ـــ عند الوصول إلى القاهرة ـــ فى الوكائل مثل الغورى وغيرها ، إن لم يتح ضيق الوكائل لغير التجار إمكانية السكنى فيها . وكانت أعداد أخرى تسكن حى طولون لقربه من سوق الدواب فى الرملة ، وما يحتاج إليه الحاج من أمور السفر . أما بقية الحجاج ، فقد كان شاغلهم السكنى قرب الأزهر الشريف ، نشداناً للجو العلمى والروح الدينية ، والالتقاء بالعلماء وطالبى العلم من كل الأقطار الإسلامية . وثمة العدد الأقل من الحجاج كانوا يأتون إلى الإسكندرية عن طريق البحر . وكان الحجاج المغاربة يقضون فى القاهرة حوالى الشهر ، كى ينضموا إلى موكب الحجاج المصرى الذى كان يغادر القاهرة فى شوال ، أو ينتظرون فترة أطول

لمن كان يفضل السفر إلى الأراضى الحجازية عن طريق البحر من القلزم (السويس)

***

أما لماذا كان المغاربة ينتقلون إلى مصر ، ولا ينتقل المصريون إلى المغرب ، فلأن مصر ــ كما قلت لك ــ كانت طريق الحجاج المغاربة ، يقضون فى مدنها فترات تطول أو تقصر ، يتعرفون إلى مظاهر الحياة ، ويزورون الجوامع وأولياء الله الصالحين : السيدة نفيسة والشافعى وابن الفارض وابن عطاء الله والبوصيرى والمغاورى وغيرهم ، ويقيمون الصداقات مع الأفراد المصريين والأسر المصرية ، وربما يعقدون صفقات مع التجار المصريين . وقد يتردد أخدهم على رواق المغاربة بالأزهر الشريف ، فينهل من العلم حتى يجيزه الأستاذ . ويعود الحجاج المغاربة إلى بلادهم ، فى حين يتخلف ــ كل عام ــ بضع عشرات أو بضع مئات ، يؤثرون الإقامة الدائمة . وتذوى ــ ثم تنتهى ــ الصلات بينهم وبين الوطن الأم ..

ولم يكن الحج وحده باعث اختيار آلاف المغاربة مصر وطناً ثانياً ، دائماً . فقد هاجر إلى مصر عشرات من

طلبة العلم ، والفارين من الاضطهاد العثمانى ، ساعد على استقرارهم جميعاً فى المدن المصــرية أنها كانت قسماً من البلاد العثمانية التى يعد المغرب كذلك قسماً منها ، فهم يقيمون فى قطعة من أرض الخلافة ، فى جزء من أرض الخلافة ، فى جزء من الوطن الإسلامى الكبير . وكان للعلماء المغاربة تأثيرات مؤكدة فى تكوين الطرق الصوفية فى مصر ..

***

استقر المغاربة فى أحياء القاهرة . تركّزت جماعاتهم ــ بصفة خاصة ــ فى أسواق الجمالية والفحامين ووكالة الكحكيين وباب الشعرية وقناطر السباع وبولاق وطولون ، وفى عدد من الموانى المطلة على البحر المتوسط ، مثل الإسكندرية ورشيد ودمياط . وأنشأ المغاربة عدداً من الأسواق والوكائل التجارية ، مثل سوق المغاربة الذى أنشأه فى منتصف القرن التاسع عشر ، التاجر التونسى يوسف بن شعبان ، وسوق الكانتو الذى تملكه عائلة الراكشى المغربية ، ووكائل الشيخ ابراهيم ، وغيرها . ويشير الجبرتى إلى أن النشاط الأساسى للمغاربة فى التجارة ، تحدد فى تجارة البن

والبهارات (اسم جدى : قاضى البهار) فى الغورية وطولون ، فضلاً عن النعال المغربية والبلغ . وكما يروى المؤرخون فقد استطاع المغاربة تكوين ثروات طائلة ، تحققت لهم بها مكانة اجتماعية متميزة . بل إن الدكتور يونان لبيب رزق يصف التجار المغاربة بأنهم كانوا يشكلون العمود الفقرى للطبقة البرجوازية فى مصر ..

وحتى الآن ، فإن المدن المصرية تشغى بلافتات مثل " شارع المغربى " و " حارة المغاربة " و " عطفة المغاربة " ، فضلاً عن سوق المغاربة الشهير فى مدينتى : الإسكندرية . كما أن أوجه التشابه لاتــزال قائمة بين البيئتين المغربية والمصرية : الجلابة والجلباب ، الطاقية والعمامة ، الشال والسلهام والعباءة ، وأثاث البيت كالكنبة البلدى والصندوق والأوانى كالطاس والإبريق والطاجن ، حتى الحلى التقليدية كالخلخال والأسورة والخاتم وغيرها . ومن مشابهات الأمثال المصرية والمغربية فى مصر : أذكر الكلب وف إيدك عضمه .. وفى المغرب : أذكر الكلب ووجد له عظم .. وفى مصر : إذا شفت اتنين متفقين اعرف ان القلب على واحد .. وفى المغرب : إذا شفت زوج من الناس متعاشرين إعرف

باللى الدرك على واحد .. وفى مصر : إذا لقيت الغالى فى السوق تمّنه .. وفى المغرب : كيل العالى ولو كان غالى .. وفى مصر : إذا كان المتكلم مجنون يكون المستمع عاقل .. وفى المغرب : إذا كان المتكلم مهبول يكون المنصت عاقل إلخ ..

***

الإسكندرية هى أقرب المدن المصرية الكبرى إلى المغرب ، فضلاً عن أنها كانت ميناء مصر الرئيس ـــ بل أولى الموانى المصرية من ناحية الشمال الإفريقى ، قبل اختراع الطائرات فى مطالع القرن العشرين . لهذا ، فقد استوطن الإسكندرية عدد كبير من أبناء المغرب ، عملوا تجاراً وموظفين فى الإدارات الحكومية ..

أنشأ سوق المغاربة بالإسكندرية ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، تاجر تونسى اسمه حسين يوسف بن شعبان . ومن روايات أبى ، أن أحفاده يشغلون معظم محال السوق حتى الآن . وكان السوق يعتمد ـــ فى تجارته ـــ على صادرات المغرب من الأصواف والماشية ، وعلى ماتصدره السوق إلى المغرب من المنسوجات والسلع المختلفة . ولا

يخلو من دلالة اسم " سوق المغاربة "بالقرب من المنشية .
كان هذا السوق ــ كما روى لى أبى ــ مقصوراً ــ أو كاد ــ على التجار المغاربة ، هؤلاء الذين وفدوا من المغرب ، فقرروا الإقامة فى مصر ــ لسبب أو لآخر ــ فى رحلة الذهاب إلى الحج ، أو العودة منه . وغالبية أولياء الإسكندرية ينتمون إلى أصول مغربية . وفى مقدمتهم المغاورى والبوصيرى والحلوجى وغيرهم ، بل إن معظم الطرق الصوفية بالمدينة ، يمتد أصولها إلى أقطاب من المغاربة كالشاذلية والتيجانية والسنوسية والعبسوية والزيانية وغيرها .. وأسماء : السيالة ، الراكشى ، غزالات ، مدورة ، النديم ، كرموس ، غبريال ، كلها أسماء مغربية ، بالإضافة إلى أماكن أخــرى تبين عن التأثير الغلاّب للوافدين المغاربة فى مجتمع الإسكندرية . وكان ممثلو الإسكندرية فى عهدى اسماعيل وتوفيق ، جميعهم من المغاربة : الشيخ مصطفى خليل جميعى ، السيد عبد الرازق جميعى الشوربجى ، السيد ابراهيم على جميعى ، السيد سليمان المغربى ، السيد سعيد الغريانى ، عبد الحميد افندى البيطاش . بل إن صديقى الشاعر السكندرى عبد العليم

القبانى يرجع الحدّة التى تتسم بها طباع أبناء الإسكندرية ــ أحياناً ــ وأنهم قد يثورون ويغالون فى ثورتهم ، إلى معاشرتهم الطويلة للمغاربة ..

***

وعلى توالى الأعوام ، مارس الشعب المصرى خاصيته العجيبة . امتص العائلات والأسر ذات الأصل المغربى ، فلم يعد من انتمائها إلى المغرب سوى الإسم أو اللقب ، وأصبحت عائلات وأسراً مصرية ، تنتسب إلى مدن وقرى فى قلب مصر .

بحـــــــــــرى

مع أن الإسكندرية كانت هى الميلاد والطفولة ولنشأة ، فإنى لم أجاوز " الموطن " ــ فى أيام الصبا ــ إلاّ نادراً ..

الموطن هو منطقة بحرى التى تبدأ بما يلى ميدان المنشية ، وتتجه إلى ميادين وشوارع وحوارى وعالم حياة ، فى الموازينى وأبو العباس والبوصيرى والسيالة وحلقة السمك والمسافرخانة والمغاورى والحلوجى والعدوى وقبــو الملاح والتمرازية والكورنيش وسراى رأس التين . سميت بقسم ــ أو حى ــ الجمــرك ، لوجود أبواب المنطقة الجمركية بها ، فضلاً عن العديد من شركات النقل والتوكيلات الملاحية والمستودعات ، وعمل عدد كبير من ابناء الحى فى الأنشطة المتعلقة بالميناء من نقل وتخزين واستيراد وتصدير وتفريغ للسفن . وثمة فئات يرتبط عملها بالبحر الذى تطل عليه المنطقة من ثلاث جهات ، كالحمالين والصيادين والبحارة والعاملين فى الدائرة الجمركية ، ودكاكين بيع أدوات الصيد ، وتجار الأدوات البحرية ..

تلقيت تعليمى الباكر فى كتاب الشيخ أحمد ، المجاور لبيتنا . تغيب تفصيلات الذكرى فى الأعوام الثلاثة ، أو

الأربعة التى لم أكن جاوزتها ، وإن انثالت إلى ذاكرتى ــ فيما يشبه الأطياف ــ صورة الشيخ أحمد ــ هذا هو اسمه ــ صاحب الكتّاب ، وعصاه التى لم تؤذ أحداً ، والتلاميذ فى مثل سنى ، والبناية القديمة فى شارع فرنسا ، ردهتها الواسعة فى الطابق الأول ، تفضى إلى طابق علوى شغل كتاب الشيخ أحمد إحدى غرفه ..

قال لى أبى ــ فيما بعد (ماتت أمى قبل أن أبلغ العاشرة ، فلم تتح لنا فرصة أحاديث الصداقة ، التى يتبادلها الآباء والأبناء ، بعد أن يجاوز الأبناء سنى الطفولة) :

ــ كنتَ كثير الاستئذان من الشيخ احمد للعودة إلى البيت حتى تأكل فولاً !..

أضاف أبى ضاحكا:

ــ كم كنت ــ ومازلت ــ تعشق الفول المدمس !..

لكن أبى مالبث أن نقلنا ــ والــ " نا " تعنى شقيقى الأكبر وكاتب هذه الكلمات ــ إلى روضة مدرسة مصــــر الفتاة ، التى ماتزال ــ حتى الآن ــ فى موقعها ، وإن تغير اسمها ، بأول شارع صفر باشا ، المفضى إلى شاطئ الأنفوشى ..

كانت شكوى المدرسة ، فالناظرة (اسمها ــ فيما أذكر ــ فاطمة هانم . وكانت تركية فى سحنتها وكلماتها وزيها ، حتى النقاب الأبيض الشهير كانت تحرص على ارتدائه) من تبولنا اللاإرادى ــ شقيقى وأنا ــ فى الفصل . كنت طفلاً ، لكننى مازلت أذكر حجرة الفئران التى أودعتنى فيها المدرسة لحظات ، لم أحس بها . انشغلت بصراخ هستيرى ، دفع المدرسة إلى فتح الغرفة . وأذكر الحريق الذى شب ــ لحظات ــ أعلى المدرسة ، وكانت من طابقين مرتفعين للغاية ــ بنايات زمـــان ! ــ واختلط الصراخ والهرج وحالات الإغماء بين فتيات المرحلة الابتدائية . أذكر كذلك ــ لا أدرى لم ؟ ــ أظافر المدرّسة الطويلة المطلية بالمانيكير . ثمة شعور بالنشوة كان يلفنى وأنا أتأمل أظافرها ، عندما تستند بأصابعها إلى الدرج ، تحاول تلقينى نشيداً ، أو آيات قرآنية . لا أذكر ملامح وجهها ، ولا نبرات صوتها ، ولا حتى ما كانت توجهه لى ــ أو لنا ــ من كلمات .. لكننى أذكر جيداً ، تلك الأظافر التى كانت تبعث فى نفسى مشاعر مبهمة ، وإن انطوت على لذة مؤكدة !..

***

ظل الدرس الأول فى مدرسة البوصيرى الأولية ــ بعد أن نقلنى أبى إليهاــ فى بالى طويلاً . طالبنا بألاَّ نستجيب لإغراء ذبابة ، تعطينا قرشاً لتضع المرض فى عيوننا . وتمنيت ــ بينى وبين نفسى ــ أن أصادف تلك الذبابة ، فأيسر لها ماتريد !..

والحق أن مدرسة البوصيرى استطاعت أن تحفر فى ذاكرتى العديد من الصور والأحداث ، تعانى التوزع واختلاف درجات الوضوح ، وانعدامه أحياناً ، لكنها تركت فى داخلى تأثيرات ، مازلت أخضع لها إلى الآن : مدخل المدرسة يطل على شارع الكنانى المتفرع عن اليمين من شارع أبو العباس المرسى ، وعن اليسار من شارع الموازينى . أما جزؤها الخلفى فيطل على سوق صغيرة تشغى بالحياة (قرأت ــ فيما بعد ــ رأى لويس عوض فى المدارس الأولية ، وأنها كانت أقرب إلى كتاتيب القرون الوسطى ــ الحرية ونقد الحرية ص ٤٣ ــ وهو رأى لا يخلو من عموميـــة ، ومن تعسّف . أزعم أنى أفدت جيداً من مدرسة البوصيرى الأولية ، ماتلقيته فيها كان هو الأساس الذى أُقيم فوقه كل ما تعلمته بعد ذلك) . كان مدرسى جميل

افندى أول من تنبه إلى موهبتى الأدبية ــ أسمح لنفسى بادعاء هذه الصفة ــ وكان يعاير بقية التلاميذ بجمال خطى (لأن خواطرى ــ حين أخلو للكتابة ــ أسرع من تلبية القلم ، فقد ضاع جمال الخط الذى كان يعجب به جميل افندى !) ويثنى على موضوعات الإنشاء التى أكتبها ، ويطالبنى بقراءتها أمام التلاميذ . وكان ينادينى ــ أحياناً ــ بالأمير جبريل . حاولت أن أذكر تأثيراً محدداً لجاد افندى ، مدرس الرسم ، فلم أوافق . صورة الرجل فى ذاكرتى كأنى فارقته بالأمس : قامته الطويلة ، الأقرب إلى النحافة ، وبشرته السمراء ، وطبيعته الهادئة .. ذلك كله يرتسم فى ذاكرتى جيداً ، ربما لأن الرجل كان دائم التردد على فصلنا ــ ولعله كان مشرفاً على الفصل حسب التعبير الذى تعرفه مدارسنا الآن ــ الحوار المتبادل ــ بينى وبينه ــ فى أمر يخصنى ، جرى مرة واحدة ، لما أصدرت مجلة بخط اليد ، عرضتها عليه ، فضحك لنكتة سأل فيهـا أحدهم رجلاً أسمر البشرة : انت سودانى ؟.. فقال الأسمر : لأ .. أنا حمص !.

نكتة ساذجة كما ترى . لكن جاد افندى ضحك ــ دون أن يغادر هدوءه المألوف ــ وقال فى حماسة حقيقية :

ـ الواد لطفى ـ كانوا ينادوننى أحياناً باسم أبى ـ عنده أفكار كويسة !..

أما بقية المدرسين فقد سقطوا من ذاكرتى تماماً . لا أذكر إلاّ أن أحدهم كان اسمه عطية افندى ، وآخر اسمه الزنكلونى ، وآخرين لا أذكـــر حتى المواد التى كانوا يدرّسونها لنا ، وإن كان من المستحيل أن أهمل أن أهمل التأثير الباطش لعاطف افندى نافع ، ناظر المدرسة ، إلى حد أنى كرهت الدراســـة ، وتمنيت الموت . كان قاسياً بلا مناسبة ، ويعاقب بخيرزانة لا تفارقه ، لمجرد التلعثم فى الإجابة ـ وكان التلعثم بدهياً فى ظل صوته الزاعق ، وعينيه اللتين يطل منهما غضب دائـــم ، وعصاه الملوحة أبداً ـ وأتصور أن العيب الخلقى الذى كانت تعانيه قدماه ، فهو يستعين على السير بعصا ، العصا لليد اليمنى ، والخيرزانة لليد اليسرى .. ذلك العيب كان له تأثيره المباشر فى عدوانيته الواضحة ـ وكانت مشاداته الكلامية كثيرة مع أولياء الأمور والمدرسين ، ومع فراش المدرسة أيضاً ..

أحببت لعبة تنس الطاولة ، وحققت فيها تفوقاً لا بأس به ، فضمنى جاد إلى فريق المدرسة ، واستطعنا أن نحرز

المركز الأول على مدارس الإسكندرية ــ وإن اكتفيت بلبس المزيكا ، فأنا لم أشارك فى أيـــة مباراة ــ لكننا انشغلنا بالمباريات ، فأهملنا المذاكرة . فلما طلب الأستاذ نافع ــ ذات يوم ــ أن أتلو سورة تبارك ، أدركنى التعلثم ــ للخوف أولاً ، ولأنى لم أكن ذاكرتها جيداً ..

قال بلهجة متوعدة :

ــ انطق !..

ــ نسيت حفظها ..

ــ لماذا ؟..

ــ كنت مشغولاً بمباريات البنج بنج ..

تلازمت صيحة الرجل مع خيرزانته التى هوت على غير موضع محدد :

ــ بنج بنج ــ الجيم معطّشة ــ إيه يابن الكلب ؟!..

بعدها ، أسقطت تنس الطاولة من اهتماماتى ، وإن لم أنس ــ فى الحقيقة ــ ذلك الصبى الضامر الذى كان يقود الفريق ــ أذكر اسمه الأول : عبد العزيز ــ وكنت أنظر إليه آنذاك كأسطورة أو معجزة ، وربما هى نفس نظرتى إليه الآن ــ فقد كان يسحق خصومه ــ كنت واحداً منهم ! ــ

دون أن يحرزوا أمامه نقطة واحدة . وكان بوسعه أن يرد الكرة إلى الطاولة من وراء ظهره ، وتنبأت له ــ تنبؤ صبى ! ــ بأن يحرز بطولة العالم فى تنس الطاولة . نال فريق مدرستنا كل جوائز الإسكندرية فى تنس الطاولة ، وزادت جرأتنا ، فشاركنا فى مباريات غير رسمية ، كنا نضمن فيها الجائزة الأولى ــ ينالها عبد العزيز ــ ويتشارك بقية أفراد الفريق فى الجوائز التالية . ثم انقطع نجمنا عبد العزيز فجأة (كنت قد اعتزلت قبله بعلقة الناظر) وذهب زملاؤه للسؤال عن بواعث مرضه ، فالتقينا بوالده ــ وكان صياداً يعانى الكبر والفقر ــ فقال :

ــ عبد العزيز لن يعود إلى المدرسة ..

ــ لماذا ؟..

ــ لأسباب أسرية ..

وكان لغياب " الكابتن " عبد العزيز تأثيره المؤكد على تفوق الفريق أضعاف ماخلفه اعتزالى . أصبح حصول الزملاء على البطولات الثالثة أو الرابعة مطلباً غالياً ، ثم عانقوا اليأس ، وانصرفوا شيئاً فشيئاً عن المشاركة فى المباريات . ثم حل الفريق نفسه ..

ويوماً ، كنت أمر فى أحد أزقة بحرى . رأيت عبد العزيز على باب دكان نجار ، يقلب الغراء الساخن فى " الكوز " . وعرفت أن الفقر هو الأسباب الأسرية التى حرمت تنس الطاولة من أنبغ لاعبيها ..

***

غادرت مدرسة البوصيرى دون أن أعرف سر ذلك الضريح الذى كان يطل على فنائها . لم يكن يتوسط الفناء ، أو يشغل جانباً منه ، وإنما شيد فى ممر مرتفع نسبياً ، وثمة سور حديدى يفصل بينه ــ الممر ــ وفناء المدرسة . أثار فضولى موضعه ، وغموضه المثير ، وتحوله ــ فى معظم الأحيان ــ إلى جزء من حركة اللعب بين الأولاد . كانوا يقفون ويجلسون ويلعبون فوقه وحوله ، دون أن يشغلهم الجثمان الذى لابد أنه كان يرقد تحته ..

من الميت ؟..

حاولت ــ بينى وبين نفسى ــ أن أجيب على السؤال . الغريب أن المحاولة لم تجاوز التكهن بالإجابة ، وضمنت إجابتى روايتى " ياقوت العرش " الجزء الثانى من " رباعية بحرى " . قلت إن الضريح قد يكون لسيدى الأنفوشى الذى

سمى الحى العتيق باسمه . أما فى رواية " قاضى البهار ينزل البحر " فإن الجدث المسجى فى القبر لشخصية مجهولة ، أو غير ذات شأن !..

***

كان البيت الذى قضيت فيه أعوام طفولتى وصباى الباكر ، يطل ــ من جانبه الأيسر ــ على كورنيش الميناء الشرقيـــة ، ومجموعة القهاوى المتقاربة : المطرى وفاروق وثالثة لا أذكر اسمها الآن ، وترام رقم ٤ بين رأس التين ومحرم بك ، وتطل نوافذها الأمامية على شارع اسماعيل صبرى ، الذى ينتهى إلى أبواب الميناء الغربية . شاهدت ــ من النافذة المطلة عليه ــ خروج قوات الإنجليز من معسكراتها فى رأس التين ، والمظاهرات الصاخبة التى كانت تهتف ضد حكومات الأقلية والسراى ، وتغنى : بلادى بلادى . صفوف متراصة ، متشابكة الأيدى ، كانت عيناى سريعتى الاستجابة ، تدمعان لها ، ومواكب الطرق الصفية احتفالاً بالمولد النبوى ، أو مولد المرسى أبو العباس ، وعربات الكارو التى تحمل جهاز العرائس فى طريقها من المنشية وشارع فرنسا ، إلى الأنفوشى ورأس التين . كلما

زاد عدد العربات ، زاد احساس أهل العروس بالزهو ، وربما وضعت على عربة واحدة ثلاث أو أربع " حلل " ، واحتل " الطشت " ــ بمفرده ــ عربة ثانية ، والكنبة عربة ثالثة ، وهكذا . والنقرزان بلباسه السكندرى : السروال الواسع ، المنفوخ ، الصديرى الصغير فوق القميص ذى الكمين ، يمشى أمام مواكب الزفاف والختان والموالد ، يلعب بعصا طويلة ، يتلقاها على جبهته ، أو أرنبة أنفه ــ وكانت فطساء ــ وربما وضع فى نهايتها كوباً ممتلئاً بالماء ، فلا تسقط منه قطرة . ومن خلفه فرقة موسيقية قوامها ثلاثة رجال ، أهمهم طبال يحسن ضبط الإيقاع . الغريب أنى طالما التقيت بالنقرزان أعوام صباى فى شوارع الإسكندرية . فلما سافرت إلى القاهرة تكرر لقائى به أمام قهاويها ، وفى شوارعها . وكان عفريت الليل يحمل عصـــاه المشتعلة ، ويتنقل بين مصابيح الغاز ، يتولى اشعالها الواحد بعد الآخر ، نحيل الجسد ــ لا أذكره ربعة أو سميناً ! ــ خطواته أقرب إلى الهرولة ، فالشوارع كثيـــرة ، وعليه أن يضئ كل الفوانيس قبل أن يحل الظلام . كان الرجل جزءاً من حركة الطريق . لم يستلفت انتباهى ، بل لم أفطن لغيابه إلاّ بعد

سنوات ، عندما تجددت الأحاديث عن " عفريت الليل " ، وذلك النداء الذى لم أردده يوماً : عفريت الليل بسبع رجلين !.. وثمة النسوة اللائى كن يرتدين " التوب " والطرحة ، ينادين على بضاعتهن : اقرا الودع ، وادق واطاهر !.. والمعنى بالنسبة لقراءة الودع واضح . أما الدق فهو دق الوشم على الصدور والأذرع ، وبالذات بين الأقباط الذين كانوا يحرصون على وشم باطن الرسغ بعلامة الصليب . ،اما الطهارة فإن النسوة كن صنو حلاق الصحة فى إجرائها ، وإن كانت طهارة الحلاق للصبية ، أما طهارة النسوة فللفتيات الصغيرات . واذكر أن امرأة أجرت عملية الختان لخادمة فى حوالى السابعة ، كانت تعمل عند جيران الشقة المقابلة ، وأصاب الطفلة نزيف ، لم تملك المرأة إزاءه إلاّ أن تضع " غلقها " على رأسها ، وتمضى مسرعة . ثم تعالى صوت الأسعاف بعد أن استغاث الجيران بها لإنقاذ الطفلة من الموت نزفاً !.. وبالإضافة إلى الأنشطة المعلنة لهؤلاء النسوة ، فقد كان لهن أنشطة أخرى ، كنت ــ وأصدقاء مراهقتى ــ نفيد منها . كنا نمارس ألعابنا فى حدائق الشلالات : أولها اسكندرانى والاستغماية وعنكب ياعنكب

والبلى والنحل والكائرات الورقية . تقترب منا إحداهن قائلة فى لهجة إغــراء : تتفرج بتعريفة ؟.. وتتقاضى التعريفة ، وتجلس القرفصاء على بعد مترين أو أقل ، وترفع ثوبها قليلاً ، ويتحول الولد إلى عينين تطيلان التحديق ، ثم يترك مكانه لزميل ، وآخر .. و " التعريفة " دائماً تسبق المشاهدة . وتمضى المرأة ، ونعود إلى بيوتنا ، نحاول استرجاع مارأيناه فى ممارستنا المجنونة للعادة السرية ، داخل الأسرّة ، أو فى دورات المياه ..

أما البلكونة والنوافذ الخلفية ، فكانت تطل على ميدان الخمس فوانيس وجامع سيدى على تمراز . شهدت فى الميدان آخر معارك فتوات بحرى ، تطايرت فيها كراسى ، وتناطحت شوم ونبابيت ، وسالت دمـــاء ، وسقط صرعى وجرحى ، وشال البوليس الباقين إلى حيث غابوا عن شوارع بحرى . وحين بدأت فى كتابة " رباعية بحرى " حاولت أن أقدم عالم الفتوات ، تعرفت إليه من خلال روايات قديمة لأبى ، وقريبة لأبناء بحرى الذين عاشوا فترة مابين الحربين . وكان فتوات نجيب محفوظ دافعاً لأن أكتب عن فتوات الإسكندرية ، رغم اختلاف المكان والزمان ، وطبيعة

الشخصيات ، ومهنهم أيضاً !. كانت " الفتونة " هى العمل الوحيد الذى مارسه فتوات نجيب محفوظ . عاشوا على البلطجة ، وفرض الأتاوات ، وافتعال المشاجرات ، وخوضها لحساب الآخرين ، فى حين انه كان لغالبية فتوات الإسكندرية مهنهم التى تكسّبوا منها ، أما الفتونة فلم تكن سوى هواية ، وسيلة لإثبات الشهامة والنخوة والمروءة والجدعنة . وكان عمل فتوات نجيب محفوظ فى غيبة من السلطة ، شغلهم الهــرب والتخفى واللواذ بالأماكن النائية . أما فتوات الإسكندرية فقد كان تحدى السلطة حرصهم الأول . وكانت معاركهم فى الساحات والميادين وعلى القهاوى ، وأعلنوا الاحتقار لمن جعل الفتونة مهنته . وكان أبلغ ما يعتز به حميدو فارس ــ مثلاً ــ ورواه الذين فوجئوا بالمشهــد ، انه كبس طربوش المحافظ على رأسه ، لسبب تصور أنه يمس كرامته . وأفدت من الحادثة فى روايتى " الأســوار " ، بيومى الدكر الذى كبس طربوش مدير المديرية على رأسه . وروى لى أبى كذلك ، الكثير عن فتوات الإسكندرية . غالبيتهم ــ أو أكثرهم شهرة ــ من بحرى ، حيث قضيت طفولتى وصباى : حميدو فارس وابو خطوة والسكران ،

وغيرهم ممن تغيرت ــ بغيابهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ــ صورة الحياة فى الإسكندرية ، وبالذات فى أحيائها الوطنية ..

***

كنت أتابع ــ من النافذة الخلفية أيضاً ــ خطبة الجمعة التى يلقيها الشيخ عبد الحفيظ ، أشهر خطباء الإسكندرية وقتذاك . وكان المصلون يفدون إليه من كل أنحاء الإسكندرية ، ومن المدن القريبة مثل كفر الدوار ودمنهور ، لأن الرجل كان يتناول فى خطبه موضوعات سياسية ، تعيب على الملك فساده ، وعلى الحكومة سوء إدارتها ، وتأخذ على المجتمع كله انه يتجه إلى الهاوية . وقد توضّح عمق تأثير الشيخ عبد الحفيظ فى أداء الملك فاروق صلاة الجمعة مرتيــن أو ثلاثاً فى جامع سيدى على تمراز . وكما روى أبناء الحى ، فقد خلع الملك على الشيخ عبد الحفيظ بــردة ، وعانقه بعد أداء الصلاة .. لكن الرجل لم يغير لهجته الرافضة العنيفة المتوعدة ..

وأقبل الناس ــ ذات جمعة ــ ليفاجأوا بأن الشيخ قد نقل إلى مسجد القائد ابراهيم فى ميدان محطة الرمل . ولم

تتغيّر هناك طبيعة الخطب التى كان يلقيها الرجل . وشكت القنصلية البريطانية ــ القريبة من المسجد ــ أن المصلين يفترشون ساحة القنصلية ، ومارست السلطات ضغطاً على الرجل ، آثر معــه أن يسافر إلى السعودية ، ولم أعد أسمع ــ أو يسمع عنه أحد ــ شيئاً ..

أما ميدان " الخمس فوانيس " فقد كان أهم مايميزه سوق العيد الذى يمتد طيلة شهر رمضان ، وعيدى الفطر والأضحى . كنت ــ وأخوتى ــ لا نمل الوقوف فى البلكونة المطلة على الميدان . نشاهد المراجيح وألعاب النشان والحظ والقوة وباعة الحلوى والبالونات ، تمضى الساعات بنا ونحن فى أماكننا ، لا نمل . بانوراما الحياة فى سوق العيد متجددة التفصيلات ، ربح وخسارة ونقاش وفصال ومشادات كلامية وبالأيدى . وشهدت فى طفولتى القرداتى والسقا والكوالينى والسنان الجوال ونبوت الغفير والعهد الذهبى لعربات الحانطور والكارو ، وطوابير التاكسى ــ فى انتظار الزبائن ــ على نواصى الشــوارع ، واستمعت إلى التعبيرات والأمثال المغسولة بمياه البحر ، وإلى نداءات الباعة المنغمة والمنظومة الكلمات . وأشهد لو أن عم محمد الفكهانى ذى

العربة العربة الصغيرة المجاورة لجامع على تمراز ، والذى كانت تطل عليه نوافذ بيتنا الخلفية ــ لو أنه اختار ــ فى الحياة سبيلاً آخر ، فأغلب الظن انه كان سيصبح مطرباً . لا أستطيع أن أصنّف صوته ، أو أتحدث عن أبعـــاده ومقاماته ودرجاته ومدى عذوبته . يقصر وعيى القاصر ــ آنذاك ــ عن تلمس ذلك أو مناقشته أو القطع فيه برأى .. لكن ماأذكره أن صوت عم محمد الفكهانى كان يطربنى للغاية . وكنت أتعمد الجلوس فى الغرفة البحرية المطلة على الشارع الخلفى ، لأتابع نداءات عم محمد التى يجيد انتقاء كلماتها ، والباسها ثوباً من العذوبة اللحنية والصوتية ..

وأذكر أنى ترددت ــ وأخوتى ــ كثيراً على سرادق أحمد المسيرى بشارع التتويج . لا أذكر المناسبات التى كان يقيم فيها سرادقه ، لكنها ــ بالتأكيد ــ كانت كثيرة ، أهمها عيدى الفطر والأضحى . يبدأ الحفل بأغنية عبد الوهاب الشهيرة : ياللى زرعتوا البرتقان ، .. ياللى اجمعوه .. آن الأوان .. وينتهى بالأغنية نفسها . ويشارك فى أدائها كل أفراد الفرقة . أما فقرات الحفل فقد أهملتها الذاكرة تماماً . لا

أذكر منها سوى أغنيات ورقصات واسكتشات غائبة الملامح ، وبلا تفصيلات ..

والحق أن الفرق الفنية كانت معلما مهماً فى بحرى ، بدءاً بسرادق المسيرى ، وانتهاء بقهوة العوالم فى نهاية شارع اسماعيل صبرى ، مروراً بالعشرات من الفرق الفنية

***

كنت أتعرف إلى الجياد الملكية من وقع خطواتها ، قادمة من ، أو متجهة إلى ، سراى رأس التين . خطوات منتظمة ، تذكرنى بها ــ الآن ــ موسيقا الصورة الغنائية " نزهة " : تك تك تك .. تك تك تك .. دول جوز الخيل والعربية .. أنفاسهم كلها حنية !.. أما سيارات السراى فقد كنا نتعرف إليها باللون الأحمر الذى اقتصر عليها ، فلا يؤذن لغيرها بذلك اللون . وعرفت ــ فيما بعد ــ أن الملك فاروق أمر باللون الأحمر طلاء لسياراته ، حتى يسهل على رجال البوليس معرفتها ، فلا يحاولون إيقافها وهى تنطلق ــ بسرعتها المجنونة ــ فى طريق الكورنيش ..

***

تبقى ملاحظة يهمنى أن أشير إليها : أنى أحب التعرف إلى حياة الشعوب من خلال ما أقرأه من قصص وروايات ، أو أشاهده من أعمال درامية ، فإن أتيح لى زيارة بلد ما ، استدعيت إلى الذهن ماكنت قرأته أو شاهدته . هوايتى تغيب ــ بالطبع ــ فى بحرى ، الحى الذى نشأت فيه ، وأستلهم منه معظم كتاباتى ، وإن كنت أشاهد الأفلام التى تعرض ــ أحياناً ــ للحياة فى الأنفوشى ، وتطرح المقارنة نفسها ، بين الواقع الذى أحياه ومشاهد أفلام السينما : لا يخلو أى فيلم عن بحرى من بار وراقصة . فتشت الحى بحثاً عن أى بار ، فلم أجد ، وأرجعت ذلك إلى حرص السينما على اجتذاب المشاهد بالإكثار من التوابل المستوردة !..

أيوووه ، ونحبوووه ، ونضربوووه ، وغيرها من الكلمات التى تحاول محاكاة لهجة أبناء بحرى ، تبدو غريبة لأبناء بحرى أنفسهم ، فهم لا يتحدثون بهذه اللهجة على الإطلاق ، وإن كانوا يدخلون " النون " فى لهجتهم ، بحيث ينسب الفعل إلى الجماعة . عبّرت الأعمال الفنية والأدبية عن الواقع الأوروبى والأمريكى : دى سيكا وإيطاليا ، فوكنر والجنوب الأمريكى ، ديستويفسكى والحياة الروسية ، لوركا

وأسبانيا ماقبل فرانكو ، كازان وشتاينبك والطبقات الأدنى فى المجتمع الأمريكى ، إلخ .. لكن ذلك مانفتقده فى أفلامنا العربية ــ المثل أوضحته ــ لحرص غريب على إضافة تلك التوابل التى لا تستهدف الواقع بقدر ما يهمها تملق مشاعر المتلقى !.

وإذا كانت مقولة الفن تؤكد أن العمل الفنى لا يحتمل الواقع فى إطلاقه ، فإن مقولة المعايشة تؤكد أن العمل الفنى قد يسئ إلى الواقع ، بهدف ينأى عن الواقع والعمل الفنى معاً .

***

العلاقات بين أبناء البيت الواحد ، والشارع الواحد ، والحى الواحد ، تختلف ــ فى مطالع الأربعينيات ــ عن الصورة القائمة الآن . المثل الذى كان يلجأ إليه آباؤنا فى لحظات خصامهم مع الجيران والأقربين : صباح الخير ياجارى .. إنت ف حالك وانا ف حالى .. هذا المثل الذى لم يكن ــ فى أغلب الأحوال ــ سوى أمنية ، يفرضها خصام طارئ ، أصبح الصورة المألوفة فى حياتنا المصرية ، وفى المدن الكبيرة على وجه التحديد .

وعندما أتذكر كيف كان يحيا بيتنا وشارعنا ــ المنزل رقم ٥٤ ، والشارع اسماعيل صبرى ــ فى مطالع الأربعينيات ، فإن الصلة تكاد تسم الجميع ، سكان البيت والحى ، موظفيه وتجاره وحرفييه وباعته الجائلين ، بما يشبه رباط العائلة الواحدة ، أو الأصدقاء الحميمين فى أقل تقدير .

كان أبى ذو المكانة الاجتماعية المتفوقة ، والثقافة التى ترتفع ــ بالطبع ــ عن ثقافة عم محمد الفكهانى ، صديقاً حميماً للرجل ، يقضى غالبية فراغ وقته فى الجلوس إليه ، وتبادل الأحاديث التى تتناول أموراً شتى . وكنت وشقيقى نتشارك مع فتحى ، ابن عم محمد ، فيما كنا نسميه " الغدّيوة " : نحضر طعاماً من بيتنا ، ويفعل فتحى الشئ نفسه ، ونفرش " المائدة " تحت مقدمة عربة عم محمد . وعلى الرغم من الاحترام الذى كان يحظى به أبى بين جيرانه ــ لاعتبارات الوظيفة ، وأنه كان الوحيد الذى يحمل فى يده صحفاً أجنبية ــ فإن شعور العائلة الواحدة كان يلف الجميع . حتى الشجار ــ ولم تكن الحياة فى شارعنا تخلو منه ــ كان أشبه بسحب طارئة ، تبددها دعابة ، أو نكتة ، أو تدخل من

الأصدقاء . وفى المرة التى تصور فيها جار الطابق الثانى ، أن لبعض سكان الشارع من الحرفيين صلة بمداعبات الأطفال الثقيلة لنجله الغالى ــ وكان يعانى البله ــ فاجأهم بسيل من الشتائم المنتقاة . وبعكس المتوقع ، قابل أصحاب الدكاكين شتائم الرجل بابتسامات وقهقهات ، وتجمعوا أمام دكان الرويعى الترزى ، يرددون على إيقاع التصفيق : العوض على الله .. الراجل اتجن !.. الراجل اتجن !.. وواجه الرجل الأمر بغضب فى البداية ، ثم شاركهم ــ بتأثير ابتساماتهم المحرضة ــ التصفيق والترديد : العوض على الله .. الراجل اتجن !..

أذكر من بين المعالم الإنسانية لبيتنا وشارعنا ، وهؤلاء الذين كانوا يفدون من الحى ، فيتركون تأثيرات دائمة أو طارئة : رشاد الحلاق ، دكانه أسفل بيتنا ، وشقته أعلى سطح البيت المقابل . كان هادئاً وطيباً بلا حدود ، شاغله الأول أن يكون له ولد ، وأسلمت الزوجة نفسها لعلاج الأطباء والوصفات الشعبية ، حتى علا ــ فى النهاية ــ صراخ المولود المرتقب . لكن الطفل رحل قبل أن يبلغ العام . بدا لى الموت مأساة قاسية ، وأنا أشاهد الرجل من نافذة

بيتنا ، يجهش بالبكاء ، ويلطم وجهه ، ويعض أصبعه ، ويرفض ــ فى إصرار ــ محاولات الرجــال بأن ينهض من الأرض التى افترشها ، فلا يغادر مكانه . أما محمود افندى الموظف بوزارة الداخلية ، والذى كان يسكن الشقة الموازية لشقتنا فى البيت المقابل ــ جسد ضئيل ، وياقة منشّاة ، ومذبّة ، وطربوش معتدل الزر ، وخطوات ثابتة ــ فقد تركت وفاته فى نفسى تأثيراً صاخباً ، لم أفلح ــ أعترف ــ فى تجاوزه حتى الآن . حان موعــد بدء الجنازة ، فأدرك الحانوتى صعوبة الهبوط بالنعش ــ لضيق السلم ــ من الطابق الثالث . وحمل الجثة رجلان ، هبطا بها إلى الطابق الأرضى ، فأوسداها النعش ، ومضت الجنازة . كانت تلك أول مرة أشاهد فيها ميتاً التف بكفنه . بدا لى مارأيت ــ داخل خيمة البكاء والصراخ والصوات ــ حزيناً ومقبضاً . صارحت شقيقى الأكبر بمشاعرى ، فتعمد ــ من يومها ــ أن يخيفنى بالجار الراحل ، فهو يهتف أثناء جلستى الهادئة مع لعبى : محمود افندى !.. وأترك مابيدى ، وأجرى نحو أمى حيث تكون ، فألوذ بحضنها ..

وإلى الآن ، فإن مشهد الموت مما لا أقوى على الوقوف أمامه . أكتفى بتشييع جنازة الميت ــ أياً كانت صلتى به ــ إلى المسجد ، فأقدم العزاء ، أو أتقبل العزاء . أما السعى إلى المقابر ، ومتابعة خطوات الدفن ، فذلك ما لاتقوى نفسى الضعيفة عليه ..

حاولت ــ يوماً ــ أن أعالج الداء ــ كما دعا أبو نواس ــ فلم أفارق جنازة الشاعر الكبير الراحل عبد الرحمن شكرى ، حتى غيبوا الجثمان داخل القبر . عدت إلى البيت ، فلم أنم ثلاثة أيام ، وظل الخوف يطاردنى لأيام طويلة تالية . كنت أرى الجثمان المكفن ممدّداً فى السرير جوارى ، فأهب فزعاً ، وألمحه فى حنية السلم أثناء عودتى إلى البيت ، وأتخيله مقبلاً ناحيتى أثناء جلوسى ــ بمفردى ــ فى الشقة . ثم بهتت التأثيرات ، وإن ظلت فى داخلى كالعقدة التى يصعب حلها ..

أما الدكتور مردروس ، فهو طبيب من أرمينيا (جاء الأرمن إلى مصر فى أعقاب الغزو العثمانى . وبديهى أن الدكتور مردروس كان حفيداً لواحد من هؤلاء الذين أتوا فى مراحل شتى من الوجود العثمانى فى مصر) . عيادته فى

الطابق الأول من بيتنا . كان سيد ــ تومرجى العيادة ــ يدعو أطفال البيت للعب معه ، وتتواصل ألعابنا فى غرف العيادة ، نمثل غارة جوية ــ وكانت الحرب العالمية الثانية تدنو من نهاياتها ــ ونلعب الاستغماية وصلح وأولها اسكندرانى . وينقضى الوقــت ، فنفيــق على صوت جرس الباب . كنا نخاف الطبيب فى البداية . فلما اقتصر رد الفعل على وقوفه بالباب ، يراقب انصرافنا الهادئ المتخاذل ، تجددت ألعابنا فى العيادة ..

مرة وحيدة ، واجهنا ــ شقيقى وأنا ــ عقاب الدكتور مردروس . أغلقنا عليه باب الشقة من الخارج ــ شقاوة عيال ! ــ فلما أفلح فى فك الحصار ، جرى خلفنا بما أوسعته شيخوخته ، وكنا نسبقه بخطوات فزعة ، إلى حيث كانت أمى جالسة فى صالة الشقة ، فارتمينا فى حضنها ، وبلل الخوف يغطى ثيابنا ..

أصارحك بأن فهمى لمعنى الأمومة يعود إلى تلك اللحظة القاسية الباهرة فى آن . تحولت أمى إلى قطة تدافع عن صغارها ، تلاحقت من فمها ــ دون أن تدرك ما حدث ــ عبارات قاسية ، تلوم الجار الذى لم يرع حقــوق الجيرة

. وعاد الرجل إلى عيادته دون أن تكتمل على شفتيه كلمة واحدة توضح مافعلناه . ثم غاب الدكتور مردروس ــ فيما بعد ــ عن بيتنا . سافر فى أجازة صيف ، فلم يعد ..

***

الصورة التى اتخيلها الآن ، أن شقتنا كانت تتوسط ، من أعلى وأسفل ، خمس شقق ، تسكن احداها أسرة عبده فرج الصبروتى ، مهنته الأساسية بناء العمارات وبيعها . وكنت وعادل الصبروتى من مواليد عام واحد ، فهو إذن سبب كاف لصداقة الطفولة ، فضلاً عن أنه كان ــ من يومه ــ ذا شخصية متميزة ، فهو ــ بلغة المذاكرة ــ " موس " لا ينادى على اللعب قبل أن يتم واجبــاته ، ويميل فى ألعابه إلى الهدوء ، وربما إلى الجدّية ، ويهبك احساساً دافقاً بالأخوة ، ومازال صداقتى لعادل الصبروتى ، حتى بعد أن انتقلت أسرته إلى بيت آخر ، وبعد أن كبرنا ، والتحق بعمل وتزوج وأنجب أبناء . لا أكتمك أن عادل الصبروتى هو صورة طفولتى . أتذكره إذا تذكرت الأيام اللاهية : اللعب تحت الأسرّة ، أو فى السطح ، وعلى السلالم ، مباريات كرة الشراب فى الشارع الخلفى ، مشاهدة السفن الضخمة فى

الميناء الغربية ، المذاكرة داخل صحن جامع أبى العباس ، متابعة صيادى السنارة والطراحة والجرافة فى الميناء الشرقية ، التسلّى بالبلى والنحل وطائرات الورق فى الساحات الخالية والأزقة ، التهام أطباق المكرونة أم تعريفة من عربة عم مصطفى أول شارع المسافرخانة ، النظر ــ من بعد ــ إلى الحياة المتفردة لطلاب المعهد الدينى ، التعليقات المعجبة بأفلام زورو وطرزان فى سينما رأس التين ، ملاحظة فتح وإغلاق محطة البنزين الصغيرة المقابلة لبيتنا ، إذا بدا عم احمد الخردواتى ــ كان يجمع بين التجارتين ــ على باب الدكــان ، عرفنا من تعليقات آبائنا ، بوفرة الأفيون ، وإذا ظل المكان مغلقاً ، فلا بد أن الرجل يعانى مرض الحاجة إلى المخدّر ..

وأما رائف ــ وأستأذنك فى أن أكتفى باسمه الأول ــ فقد كان يقيم فى شقة بالطابق الأول ــ الطابق شقتان ــ وكان ذا شخصية باهتة . لا أذكر أنه شاركنا لعباً ولا جداً . وكان يختفى من حياتنا ، ويظهر ، فيشكو أمه التى تخشى عليه النسمة ــ فهو وحيدها ــ وأباه الذى لا يمل التردد على المدرسة ، ليوصى به ، فيعايره التلاميذ بالكوسة التى لن

تتفع خائباً . ذكرى رائف ترتبط بمراهقتى . بالتحديد : تلك الأيام التى يتعرف فيها الصبى إلى جواب السؤال : كيف يمارس قطّا البيت علاقتهما الجنسية ، دون أن يتاح لهما معرفة طبيعة العلاقة أصلاً ؟.. فهو يتنبه ــ بوسبة ما ــ إلى بلوغه ، وإلى الهاجس الغريب فى داخله ، يطلب اللذة والسكينة . وتتحرك أصابعه ــ غريزياً ــ بالعادة السرية ، فتبدو عالماً بهيجاً ، يعاود الدخول إليه مرات ومرات . وصارحت الولد باكتشافى ، فأبدى فضولاً للمعرفة ــ لم يكن قد أدرك البلوغ بعد ــ فرفضت ، وإن توقدت سعادتى لأنى أمارس مايعجز عنه آخرون . ثم اختفى رائف من حياتى ، فلا أراه إلاّ مصادفة . خوف الأم على الصبى من فساد البنات ، أو السير فى طريق خاطئة ــ تناثرت همسات بجنوح نوازعه الجنسية ــ دفعها إلى تحديد خطواته بين البيت والمدرسة ، وذوت صداقتنا الطارئة ــ بالإهمال ، وبالبعد عن العين ــ وشغلتنى عنه ، فيما بعد ، صداقات جديدة ، وثابتة ..

***

كان البحر يطل على بيتنا من ثلاث جهات . ثمة ــ على اليسار ــ الميناء الشرقية ، التى تبدأ بالسلسلة ، وتنتهى بقلعة قايتباى ، وفى مدى الأفق ، من نوافذه الخلفية ، شاطئ الأنفوشى الذى يتجه إلى سراى رأس التين . أما الجانب الأيمن ، فيطل على الميناء الغربية ، بدءاً بباب نمرة واحد ــ وكم تسللنا إليه : عادل الصبروتى وأنا ، نتطلع للبواخر الضخمة الراسية فيه ــ إلى حيث لا أدرى من الأرقام ..

أستطيع القول إنى أفدت من هذه البيئة السخية ، ليس على المستوى العاطفى أو الوجدانى فحسب ، وإنما على مستوى الحياة اليومية ، والتعامل فى واقع ، والإفادة من خبرات . حرصت على أن يكون البحر ، والأنفوشى ، فى أغلب الأحيان ، ولعل الحرص كان من جانبهما أيضاً ! ــ مرادفاً لغالبية ماكتبت ..

بيئة الأنفوشى ، أو رأس التين ، أو السيالة ، أو بحرى ــ رغم اختلاف التسميات ــ تعنى شبه جزيرة من شبه جزيــرة الإسكندرية ، بيئة لها خصوصيتها المتميزة ، واختلافها لا عن بقية أحياء الإسكندرية الأخرى فحسب ، وإنما عن البيئات المصرية جميعاً . الموظفين العاملين فى

الميناء ، وضباط البحرية فى المناطق التى تلى ميدان أبى العباس فى الطريق إلى النشية ، وعساكر السواحل والحرفيين والصيادين وغازلى الشباك وصناع السفن فى السيالة وماحولها ، إلى سراى رأس التين ..

ومع أن الوصول إلى شاطئ الأنفوشى ، وشوارع السيالة وحواريها وأزقتها إلى رأس التين ، كان يستلزم مشواراً ــ فى الأقل بالنسبة لمن لم يجاوزوا مرحلة الصبا آنذاك مثلى ــ فإنى كنت أجد متعة حقيقية فى الوقوف على شاطئ الأنفوشى ، ومتابعة عمليات الصيد ، وصناعة البلانسات والمراكب الصغيرة ، والتعرف إلى العلاقات السوّية والبسيطة والمشبوهة ، والصلة بين دنيانا التى نحياهــا ، وتلك التى تشغى بالأولياء والجان والأرواح وتوقعات الغيب . وإذا كان تعرفى إلى الحياة المتميزة قد انعكس فى العديد من أعمالى : الأسوار ، وإمام آخر الزمان ، والصهبة ، وقاضى البهار ينزل البحر ، وعشرات القصص القصيرة ، فإن صور الحياة فى بحرى ــ ماضيه القريب تحديداً ــ تلح فى أن تكون نبض أعمال أخرى تالية ..

أتاحت لى الظروف أن أسافر خارج مصر ، أتعرف إلى نماذج تتباين إلى حد التضاد ، وأفدت من ذلك كله بصورة وبأخرى ، لكن " بحرى " يظل هو السيد فى كل ما أطمح إلى كتابته ، وفيما انتهيت من كتابته فعلاً ، وكما قلت لك ، فإن خصوصية الحياة ــ فى المنطقة التى تبدأ بانحناءة الطريق من نقطة الأنفوشى إلى انحناءة الطريق فى سراى رأس التين ، وهبتنى تجارب وورؤى وخبرات ، لم ألتق بها فى مكان آخر ..

روى لى صيقى نجيب بن عياد فى جلسة سمر بمدينة المينستير التونسية ، عن نماذج أتاحت له أيام الدراسة فى باريس أن يتعرف إليها ــ أفدت منها فى روايتى " إمام آخر الزمان " ــ لكن الشخصيــات التى قضيت معها سنى الطفولة والصبا فى الأنفوشى ــ وبحرى عامة ــ جزء من حياة بانورامية ، كانت أشــد ثراء وتبايناً فى التعبير عن الطبيعة البشرية ، الغريبة والمحيرة . وأذكـــر هنا شخصيتى " أنسية " و " حمادة بك " فى " رباعية بحرى " التى استغرقت منى كتابتها أعواماً . فبالإضافة إلى دلالتهما

الاجتماعية والنفسية ، فإنهما تعبير فعلى عن نماذج التقيت بها فى أيام الأنفوشى ، وتعرفت إليها بصورة مباشرة ..

***

صارحنى صديق : يبدو أنك أشفقت من أن يغيب الأنفوشى عن أحد أعمالك ، فأدخلته ــ قسراً ــ فى " إمام آخر الزمان " ؟..

مع أن الإسكندرية ــ وبحرى خاصة ــ عشقى الدائم ، وطرف خيط الزمان والمكان فيما أحاول من ابداعات ، فإن غياب على عبد الحسين ورفاقه فى الفصل قبل الأخير فى " إمام آخر الزمان " ، هؤلاء الذين لا يعنينا أسماءهم بقدر مايعنينا تواصل حلقات القهر والديكتاتورية . غياب على عبد الحسين ورفاقه ، أتاح السبيل لظهور فكر آخر جديد ، يناقش الأمور من زواياها المناقضة . الإمام ــ فى نظر أصحاب ذلك الفكر ــ لا يرمز إليه بعلامة (×) لكنه بداية وتطبيق ونهاية . أن يكون له اسمه ، ومكانه ، وزمانه أيضاً . كان الإسم ضرورة . لم يعد الإمـــام فحسب . وكان ذكر المكان والزمان ضرورة . ومثلما فرض اسم حسن الحفناوى نفسه ، فقد فرض حى بحـــرى نفسه كذلك مكاناً وزماناً لأحداث

الفصل الأخير فى " إمام آخر الزمان " . بحرى هو الاختيار الطبيعى . أعرف ناسه ومساجده وبيوته وميادينه وشوارعه وأزقته . أستدعى الذاكرة ، فترتسم بانوراما المكان بكل أبعادها ..

فى احدى قصصه القصيرة ، اعتذر بلزاك لقارئه أنه أسرف فى وصف الشارع الذى جرت فيه أحداث القصة ، لسبب بسيط : أن ذلك الشارع هو الذى ولد فيه بلزاك ونشأ .. وأعتقد أن هذا هو الشعور نفسه الذى أكتب من خلاله الكثير من أعمالى .

أنا لا أستطيع أن أتصور شخصياتى ــ إلاّ ــ نادراً ــ فى غير تلك المنطقة التى تبدأ بسراى رأس التين ، وتنتهى بنهاية شارع الميدان . عالم يفرض نفسه فى كل ماأكتب . وكما قلت لك ، فقد فوجئت فى آخر رواية " إمام .. " بأن الإمام له اسمه ، وللأماكن أسماؤها . جرت أحداث الفصل فى السيالة ، بعكس بقية فصول الرواية التى جرت أحداثها فى أماكن أخرى ، فغاب اسم الإمام ، وغابت أسماء الأماكن . والمكان الوحيد الذى أسهب القلم فى وصفه فى " الأسوار " هو شاطئ الأنفوشى . وأحياناً ، فإنى بعد أن أضع نقطة

النهاية لقصة قصيرة ، أكتشف أن أحداثها تدور فى ذلك البيت الذى يطل على شارعى اسماعيل صبرى ورأس التين ، ويطل ــ من الخلف ــ على جامع سيدى على تمراز . إنه البيت الذى قضيت فيه طفولتى وصباى . ولعل ابتعادى عن الإسكندرية ، واقامتى فى القاهرة حيث أعمل ، ثم سفرى إلى منطقة الخليج فى رحلة عمل استغرقت تسع سنوات .. لعل ذلك الابتعاد كان محركاً لمشاعر الحنين التى أصبحت نافذة ، تطل منها غالبية أعمالى

أحيا خارج مصر ، أو فى القاهرة ، فتحيا فى مخيلتى شوارع وحوارى ومساجد وبنايات الإسكندرية . أشعر بالحنين ــ والحب أيضاً ــ لمجرد أنى أكتب اسم شارع ما ، أو أجلس بالخيال على قهوة ، أو أتعرف إلى أى شئ ينتسب للإسكندرية ، وحى بحرى على وجه التحديد . أضيف : انى كنت ــ ومازلت ــ أشفق على أبناء الأنفوشى والسيالة ورأس التين ، وبالذات تلك البيوت المتساندة التى إذا تهدم أحدها ، فإنه مايلبث أن يجر وراءه بيوتاً ملاصقــة . مع ذلك ، فإن الشعــور بالأسى يغمرنى كلما تبدلت صورة المكان ، وتأكدت سطوة المعاول والبلدوزروات والعمارات

العالية والطابع الأوروبى . وحين أخطو فى شوارع وحوارى وأزقة دنياى القديمة ــ ما أفلح فى النجاة من معاول المدنية ! ــ فإنى أخطو فى الأماكن نفسها التى سار فيها من قبل آبائى وأساتذتى : عبد الله النديم وسيد درويش وسلامة حجازى وكامل الحريرى وأحمد الليثى ومحمود عيسى وزكى مراد ومحمود سعيد وبيرم التونسى وبيكار وعشرات غيرهم ، جلسوا فى شاطئ الأنفوشى ، وعلى قهاوى السيالة ورأس التين ، صلوا فى أبى العباس والبوصيرى وياقوت العرش ونصر الدين والبوصيرى وعلى تمراز ، شاهدوا الجلوات والموالد ، وشاركوا الأذكار ، تحسّبوا للنوات ، اشتروا " الشروات " من حلقة السمك ، تطلعوا إلى قلعة قايتباى ومبانى السلسلة والبواخر الضخمة فى الميناء الغربية ..

***

أنا لا أطمح أن يصبح " بحرى " فى أعمالى ، مثلما أصبحت قرية " ماكوندو " فى روايات جابرييل جارثيا ماركيث . موهبتى لاتقارن بموهبة ماركيث ، لكن بحرى يتميز عن ماكوندو أنه واقع وليس خيالاً ، وإن تدخّل الخيال

أحيانا كثيرة ــ وهذا بدهى ! ــ فأعاد تقديم الواقع فى اطار الفن . وأذكر أنى كنت أقبل على كتابة رواياتى : المرسى ، ياقوت العرش ، البوصيرى ، على تمراز ، لا باعتبارها قصصاً لها مقومات القصة القصيرة ، بل ولا حتى باعتبارها فصولاً فى رواية ، وإنما باعتبارها " تقارير " عن الحياة فى بحرى ، فى الفترة من نهايات الحرب العالمية الثانية إلى قيام ثورة يوليو . كان شاغلى ــ أحياناً ــ تسجيل القيم والعادات والتقاليد ، من خلال الشخصيات التى عرفتها ــ أو أخرى شبيهة لها ــ عن قرب ، أعوام طفولتى وصباى . مع ذلك ، فإن دافع كتابة " التقارير " لم يكن إجراء مسح اجتماعى ، بقدر ماعنيت بتضفير الحقائق الموضوعية بالقيمة الجمالية . ولم يكن ذلك أمراً يسيراً . حرصت على تقديم صورة الحياة فى بحرى ، عندما كان للحياة تميّزها الذى تختلف به عن بيئات أخرى فى الإسكندرية ، ومدن مصر ، لكننى حرصت ــ فى الوقت نفســه ــ على " الفن فى القصة " باعتبارها كذلك ، وإلاّ لكتبت دراسة سوسيولوجية !..

ولعله يجدر بى أن أرد الفضل لذويه ، فأعترف أنى أفدت ــ بغير حد ــ من الخطط المصغرة ــ هل هذا هو

التعبير الأدق ؟ ــ التى ألفها الراحل خليل السيد سليمان ، الموظف السابق بالسكة الحديد . أنهاها فى ١٩٦٩ ، ومات فى العام التالى . بالتحديد فى ٣ ابريل ١٩٧٠ . لم أر الرجــل ولا التقيت به حتى مات . عندما بدأت فى كتابة الروايات الأربع . أهدانى صديقى الشاعر الراحل عبد الله أبو رواش خطط خليل سليمان . كان الرجل قد أودعها لديه ، ومات . وتصور أبو رواش انى ربما أفدت منها فى الرباعية ، وهو ماتحقق بالفعل . تعرفت ــ فى الخطط ــ إلى بانورامية الميادين والشوارع والحوارى والأزقة فى بحرى . لا أدرى بواعث كتابــة خليل سليمان لخططه ، وهل كان يزجى فراغ الوقت ، أو أنه عنى بجغرافية المنطقة لدراسات كان يعدّها ؟..

أفدت من جهد الرجل ، وإن لم أتعرف إليه شخصيا .

***

يشغلنى السؤال : لماذا بحرى ــ دائماً ــ هو صورة الإسكندرية ؟.. بنات بحرى واحدة من أجمل لوحات فناننا العظيم محمود سعيد ، المطربة هدى سلطان تغنى : من بحرى وبنحبوه . وإذا كان الفيلم عن البيئة الشعبية السكندرية

، فإن أحداثه لابد أن تدور فى السيالة ورأس التين ، وربما انتقلت إلى الميناء الغربية (ميناء الإسكندرية) ومحطة الركاب . حتى الأفلام التى تحاول اقناعــك بأنها فى الإسكندرية ، تكتفى بتصوير المراكب الصغيرة المتناثرة فى يسار الميناء الشرقية ، بالقرب من نقطة الأنفوشى . المكس والورديان والقبارى وغربال وكرموز والباب الجديد وغيرها من أحياء الإسكندرية الوطنية ، غائبة ــ أو تكاد ــ فى صورة المدينة . قد يأتى ميدان محطة الرمل فى لفتة عابرة ، وربما مست الكاميرا شاطئ الكورنيش ، لكن بحرى ــ فى الأعم ــ هو الصورة الوحيدة للإسكندرية ، الإسكندرية الحقيقية ، اسكندرية ناسها الذين ولدوا وعاشوا حياتهم فيها . ربما يمر عام أو اثنان ، فلا يفكر أى من أبناء الحى فى مجاوزة المدينة إلى شواطئ التصييف ، بدءاً بالشاطبى إلى المعمورة . إنها اسكندرية الأولياء والصيد والتصدير والاستيراد والشحن والتفريغ والتجارة والتصنيع . تقاليد البحر هى التى تحكم العلاقات ، وتسيطر عليها ..

بحرى يتسم بشخصية خاصة ، مذاق مختلف ، بيئة مغايرة ، فيبدو ملمحاً متميزاً ، وإن كان أكثر تعبيراً عن

البيئة الساحلية فى عمومها . ثمة الصيـــادون الذين يمثلون قطاعاً رئيساً بين أبناء الحى (تأمل هذه الشياخات : السيالة ، رأس التين ، الصيادين ، سوق السمك) . حتى الزى التقليدى : اللاسة والصديرى والسروال الفضفاض الطويل ، تلتقى به فى بحرى ، وربما فى أبى قير ـــ بيئة صيادين كذلك ـــ وثمة عساكر السواحل والعاملون فى الميناء الغربية ، والذين يعد " البحر " محور حياتهم وهمومهم اليومية . وهناك شاطئ الأنفوشى الذى يتسم بشعبية خالصة ، تختلف ـــ بصـــورة مؤكدة ـــ عما نراه فى شواطئ الإسكندرية الأخرى . وإذا كان بوسع الرجال أن ينزلوا البحر بالمايوهات العادية ، فإن الفتيات والنساء يصعب إلاّ أن يستحممن بثيابهن المنزلية . ومن المستحب أن يكون ذلك فى الصباح الباكر ، حتى لاتقع عليهن عين (أصارحك بأن هذه الثياب ـــ عندما تبتل بالمياه ـــ تبدو فى التصاقها بالجسد أشد إثارة من المايوه !) .

أما المرسى أبو العباس ، سلطان الإسكندرية وحاميها ، فإنه الرمز للإسكندرية كلها : اقروا الفاتحة لابو العباس .. ياإسكندرية ياأجدع ناس .. الزفاف يظل ناقصاً مالم تسبقه

جولة للعروسين وأصدقائهما حول الميدان المواجه للجامع سبع مرات ، وكرامات السلطان فى حوائج الغلابة والمنكسرين من أبناء الإسكندرية والمـــدن المجاورة ، لا تقل عمّا يعتقده أبناء القاهرة ــ والمترددين عليها ــ فى أم العواجز وزين شباب أهل الجنة والشافعى والرفاعى وأولياء اللـــه الصالحين . وأما ياقوت العرش والبوصيرى ونصر الدين والعدوى والمغاورى وغيرهم من الأولياء ، فإنهم ــ فيما يبدو ــ اختاروا جيرة أبى العباس ، تحول بحرى به وبهم إلى منطقة جذب دينى ، يفد إليها الناس من أنحاء الإسكندرية ، ومن المدن والقرى المحيطة ، وتتعدد فيه الموالد وحلقات الذكر ومواكب الصوفية ..

بحرى ــ حى الجمرك كما تقول الأوراق الرسمية ــ يمثل أكبر نسبة كثافة سكانية بين أحياء المدينة . غالبيتهم من أصل سكندرى ، بعكس أبناء بعض الأحياء الأخرى كالقبارى ومينا البصل وغيط العنب وباب شرقى ..

بحرى أصل الإسكندرية ..

بحرى صورة الإسكندرية ، أصالتها وتفردها وسماتها المميزة ..

بحرى : الميلاد والطفولة والنشأة ، وبداية التعرف إلى

كلمة : وطن .

أيام فى المعهد الدينى

لعل الأعمال الروائية كانت أصدق تعبيراً ــ ربما عن كتابات المؤرخين ــ فى تصوير فترة التناحر الحزبى ، فى مجتمع ماقبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . حيرة الشباب ، وتوزعه ، بين مختلف التنظيمات والأحزاب ، السرية والمعلنة ، هى نبض العديد من الأعمال الروائية لنجيب محفوظ واحسان عبد القدوس وعبد الحميد السحار ويوسف ادريس وثروت أباظة وغيرهم . وكم كان مؤثراً ــ فى ختام " السكرية " ــ أن يستقبل السجن عبد المنعم شوكت الإخوانى ، وشقيقه أحمد شوكت الشيوعى ، بينما ابن عمهما رضوان ياسين ، الذى آثر استغلال مواهبه الجسدية فى تحقيق طموحاته ، يجنى الثمار فى سهولة ويسر

بالطبع ، فإن حداثة سنى لم تهبنى الفرصة لتبين مبادئ كل حزب واتجاهاته بصورة متكاملة ، إنما هى ملامح مشوهة وغائبة التفاصيل ، لكنها ــ مع ذلك ــ توضــح ، بدرجة وبأخرى ، طبيعة الحياة السياسية المصرية ، فى واحدة من أخصب فتراتها ..

أول حادثة سياسية أذكرها ، عندما عاد أبى من عمله ظهر الأحد ٢٥ فبراير ١٩٤٥ (كنت فى السابعة من عمرى) فى يده صحف اليوم ، يتصدرها نبأ مصرع الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء آنذاك . تقدم منه الشاب محمود العيسوى عضو الحزب الوطنى ، فى البهو الفرعونى ـــ بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ ـــ تظاهر بالرغبة فى مصافحته ، ثم أفرغ رصاصات مسدسه فى صدر رئيس الوزراء . كان الشاب قد أصدر حكمه ، ونفذه ، عقاباً لأحمد ماهر على اقتراحه بأن تعلن مصر الحرب على ألمانيا الهتلرية ..

لم أكن أفهم الموت تماماً ، فأثار ملاحظتى فحسب ، أن كل الصور المنشورة بالصحف كانت للرجل ـــ أحمد ماهر ـــ وهو يبتسم !.. الموت ـــ كما أفهمه ـــ كريه ، فلماذا لا يحزن الرجل بعد أن مات ؟..

أعلنت ملاحظتى ، فضحكت أمى ، وقال أبى :

ـــ كانت هذه الصور للرجل قبل أن يموت . من يموت لا يبتسم ولا يحزن ولا يشعر بما حوله !..

هززت رأسى كأنى عرفت ، وإن أخليت ذهنى ــ فيما بعد ــ لتساؤلات لا نهاية لها

كانت تلك هى المرة الأولى التى أتعرف فيها إلى أسماء : أحمد ماهر ، محمود العيسوى ، البرلمان ، المحور ، الحلفاء . ثم فرضت الأوضاع التى أفرزتها الحرب العالمية الثانية أن أنشغل ــ بقدر وعيى المحدود ــ بالأحداث السياسية المهمة . شاركت بالقراءة والمتابعة ، والمناقشة أحياناً . وأعتقد أن وعيى السياسى قد نضج فى وقت مبكر ، ذلك لأنى حاولت أن أدلى برأى فى القضية الفلسطينية ، قبل أن يقر مجلس الأمن مبدأ التقسيم ، فرمقنى " أحدهم " بنظرة استنكار واضحة ، وقال : مش تشوف مذاكرتك الأول ؟!.. وتطوع جار لنا ، أتاح لى ــ قبلاً ــ فرصة النقاش فى موضوعات شتى ، بأن يمسح قطرات العرق التى تفجرت فى صمت ، وقال : بالعكس ، إن وعيه السياسى ممتاز !.. وعرفت ــ يومها ــ أن آرائى السياسية ــ وقد استهوت جارنا العزيز ــ ليست ساذجة ولا نكراً ..

***

كان عام ١٩٤٨ بداية اهتمامى الفعلى بالقضية الفلسطينية . كنت فى العاشرة من عمرى . أعرف فى السياسة بالقدر الذى يتيحه لى مايأتى به أبى من صحف ، فضلاً عما تضمه مكتبته من كتب سياسية . وتناول الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع سيدى على تمراز ، فى خطب الجمعة ، معارك الشعب الفلسطينى ضد عصابتى شتيرن والهاجاناه وغيرهما ، وأم المصلين فى صلاة الغائب على روح عبد القادر الحسينى ، وطالعت نداءات الدعوة للجهاد التى ألصقها الأخوان المسلمون والجماعات والأحزاب السياسية على جدران المبانى ، وفى الميادين ، وتطوع للقتال الشقيق الأكبر لصديقى حسن السويفى ، وقال حسن إن والديه حزنا بشدة لتصرف شقيقه ، وامتدت أحاديث أبى وأصدقائه ، تتناول القضية منذ بداياتها ، وأكد زوج عمتى ــ جعفر بدر ابراهيم ــ وكان مأموراً لمرصد كوم الناضورة ــ أن دخول القوات المصرية فلسطين ، فرصة للتدرب الفعلى على فنون القتال ، بعد أن شاركت ــ بالفرجة تقريباً ــ فى أحداث الحرب العالمية الثانية . وزادت متبعتى لتطورات الأحداث منذ الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ . أحاول النطق السليم لإسم

القدس ــ وكنت أنطقه بالفتحة جميعاً ــ والتعرف إلى الفرق بين سوريا وروسيا ، وإن كانت أبعاد القضية قد توضحت أمامى تماماً ، ساعد على ذلك ــ كما قلت ــ أنباء الصحف ومعلومات الكتب ومناقشات أبى وأصدقائه . وكنت أشارك فى تلك المناقشات ــ أحياناً ــ بما لا يرى فيه أبى وأصدقاؤه سذاجة ولا نكراً !..

***

وأثناء انتخابات ١٩٤٩ ، كنت فى طريقى إلى الطنطاوى بائع الفول بشارع التتويج . وتسللت وسط حلقة من الناخبين كانوا يناقشون مرشحاً سعدياً ــ لا أذكر سوى أنه كان ممتلئ القامة ! ــ وكانوا ينصتون ــ فى تأثر واضح ــ إلى كلماته التى تركزت حول حادثة ٤ فبراير ، وعلاقة مصطفى النحاس ــ وقرينته ــ باللورد كيلرن . وكان من خلفنا صورة للنحاس وزينب الوكيل واللورد ، تحتها كلمات تنعى خيانة الزعامة الوفدية . وكضيف غير مدعو ، قلت للمرشح السعدى : إذا كان النحاس قد أخطأ بقبول الأمر الواقع فى ٤ فبراير ، فإن النقراشى قد ارتكب جريمة بحادثة كوبرى عباس . لم يغضب الرجل لاقتحامى المتحمس .

لقّبنى بالقاضى الصغير ، وناقشنى فى خروج الزعامة الوفدية عن المسار الصحيح لحركة الوفد المصرى ، وأن السعديين هم التواصل الحقيقى لمبادئ الوفد كما كان يمثلها الراحل سعد زغلول ، ومن هنا كانت تسمية " السعديين " . وطال النقاش ، والناس من حولنا إلى صبى صغير ، يرتدى بيجاما وصندلاً وبيده " كسرولة " ، ومرشح يحاول أن يصور لناخبيه ــ بالصبر على تبجح صبى ــ مدى ديمقراطيته ..

والحق أن لم أشارك بجهد ايجابى فى الحياة السياسية حتى أواخر الخمسينيات ، اللهم إلاّ إذا كان ذلك الجهد الإيجابى قد تمثل ــ يوماً ــ فى مظاهرة تدعو لأحد المرشحين ..

كان أبى ينتمى ــ بعقله ــ إلى الحزب الوطنى ، وبعاطفته إلى الوفد . أما أنا فلم يكن يشغلنى فى كل ما أناقشه إلاّ تلمس جوانب الصواب والخطأ ، فالنقراشى يصرخ فى مجلس الأمن : أيها القراصنة أخرجوا من بلادنا !.. فهو إذن قد اختار الصواب . والنقراشى يفتح كوبرى عباس على الطلاب المتظاهرين ، فهو قد ارتكب جناية يستحق عليها الإعدام . وجرائم اسماعيل صدقى البشعة لا تلغى انجازه

لكورنيش الإسكندرية . ومواقف النحاس الوطنية لا تضع ستاراً على حادثة ٤ فبراير . لم أكن قد تعلمت النظر إلى الأحداث فى بانوراميتها التى تتصل فيها النتائج بالأسباب ، إنما هى مواقف لهذا الزعيم ـ أو الحزب ـ أو ذاك ، فأرضى عنها ، أو أسخط عليها ، دون أن تتشكل خلال توالى الرضى والسخط ، وجهة نظر أقتنع بها ، وأدافع عنها ..

ثم دعت حكومة الثورة إلى إجراء انتخابات عامة لمجلس الأمة عام ١٩٥٨ ، وسعيت ـــ للمرة الأولى فى حياتى ـ إلى شقة متواضعة بالقرب من طريق الكورنيش ، حوّلها أحد المرشحين مقراً انتخابياً له . وكان الباعث على ذلك التصرف أن المرشح ـ وأذكر من اسمه جمـال الدين ـ كان أستاذاً بكلية العلوم ، لم يسبق له الدخول فى المعارك الانتخابية ، بينما كان منافساه ينفقان آلاف الجنيهات فى كسب الأصوات ، بدءاً بدفع ورقة نصف الجنيه ، والاحتفاظ بالنصف الثانى حتى اعلان النتيجة ، وانتهاء بالقسم على المصحف أن يعد الذى يعطى الخصم صوته خارجاً من دين محمد ، ويستحق النار حدفاً ..

ولاحظنا ــ بعد أيام من بدء الحملة الانتخابية ــ أن عدد المترددين على المقر فى تناقص مستمر . وكان السبب واضحاً ، فلم يعد ماقدمه المرشح إلى ناخبيه فناجين الشاى أو القهوة . واقترحت ــ فى تأدب ــ أن نفعل مثل الآخرين ، فننظم مظاهرة تطوف شوارع الدائرة الانتخابية ، لعل المتعلمين من أبنائها يتنبهون إلى المرشح الخافت الصوت ، فيعطونه تأييدهم ..

وغادرت المظاهرة ــ عصر اليوم التالى ــ " مقرنا" الانتخابى . كانت تتألف من حوالى عشرين شخصاً ، راحوا يعالجون الحرج فى البداية ــ فلم يكن لأى منهم سابق عهد بالانتخابات ، ولا بالمظاهرات الانتخابية ــ ثم انضم إلي المظاهرة ــ كالعادة ــ عدد من الذين ينضمون إلى كل مظاهرة ، بصرف النظـــر عن انتماءاتها ، ولا إلى ماذا تدعو ، وعلت الأصوات شيئاً فشيئاً ، حتى تنبهت إلى نفسى فجـــأة ، وأنا أتوسط المتظاهرين فى شارع السيالة ، أردد الهتاف الذى لم يتغير : إن جيت للحق .. جمال أحق !..

لكن الأمل فى وعى متعلمى دائرة الجمرك شحب وتلاشى أمام الأموال التى أنفقها المرشحان المنافسان . وكان

نصراً مبشّراً عندما استطاع مرشحنا أن ينال من الأصوات ما يسترد به تأمينه الانتخابى !

***

كانت الشيوعية أولى التسميات السياسية التى تعرّفت إليها . كنت أتلقى تعليمى الأولى فى مدرسة البوصيرى بالموازينى ، وأحاول الإفادة مما تعلمته بقراءة ــ الأدق : تهجى ــ ملصقات الأفلام ، ولافتات الدكاكين ، وكل ماتصادفه عيناى . هزتنى ــ فى البداية ــ تلك الكمات التى كتبت بخط كبير على جدران المحكمة الشرعية بشارع فرنسا ، ثم تكررت رؤيتى لها فى جدران مبانى الإسكندرية : " الشيـــوعية ضد الدين " ..

ولأن بيتنا كان يطل على جامع ، ولأنى كنت أعشق أبا العباس : سيرته وضريحه ووصحنه الفسيح وأعمدته الرخامية والميدان الصغير أمامه وناسه واحتفالات مولده ، ولأن الترغيب ــ والترهيب ــ بالدين والحساب والعقاب والجنة والنار ، كان بعض الطعام الذى فطمت عليه فى طفولتى .. لذلك كله ، فقد هزتنى الكلمات ــ أول ماستطعت قراءتها وفهمها ــ هزاً عنيفاً : ألا تخشى تلك الشيوعية أن

تقف ضد الدين ، بكل مايحمله من قوى جبارة ؟!. وتجسدت خطورة الكلمات فى ذهنى إلى حد رفضت معه أن أسأل أبى عن معناها وبواعثها . دار السؤال فى الذهن كثيراً ، وإن لم أقله . لعلى كنت أتهيب التعرف إلى مفاجآت لم تخطر لى ببال ..

***

نحن نلحظ أن عمران الإسكندرية كان يتمركز دوماً حول أضرحة أولياء المدينة ، مثل القبارى وبشر والشاطبى وجابر الأنصارى وأبى الدرداء والطرطوشى وغيرها .. فضلاً عن منطقة بحرى التى يعتبـــر أبناؤها جيرتهم لأولياء الله شرفاً لا يقل عما يحس به أبناء القاهرة بجيرتهم للحسين والسيدة زينب والشافعى والرفاعى والسيدة نفيسة وزين العابدين ، وجيرة أهل طنطا للسيد البدوى ، وأهل دسوق لابراهيم الدسوقى ، وأهل قنا لعبد الرحيم القنائى ، وأهل دمياط لأبى المعاطى ، وأهل الأقصر لأبى الحجاج الأقصرى ، إلخ

بحرى هو أشد أحياء الإسكندرية ازدحاماً بالمساجد والزوايا وأضرحة الأولياء . الدين هو الملمح الأهم :

المرسى أبو العباس ، البوصيرى ، ياقوت العرش ، الطرطوشى ، محمد صلاح الديــن ومحمد المنقعى ومحمد مسعود أبنـــاء الإمام زين العابدين بن الحسين ، الشريف المغربى ، أبو وردة ، محمد الغريب شقيق قطب السويس عبد الله الغريب ، أبو نـــواية ، الطرودى ، نصـــر الدين ، مكين الدين ، على تمراز ، عبد الرحمن ، تربانة .. العشرات من أولياء الله الصالحين ، مساجد وزوايا وأضرحة وأحواش أذكار ، وليالى المولد النبوى ، وعاشوراء ، والإسراء والمعراج ، والرؤية ، ورمضان ، ومواكب الصوفية ، وحلقات الذكر ، والقادمين من المدن المجاورة ، نشداناً للنصفة والبرء من المرض والستر والمدد ..

أذكر ــ كالأطياف ، أو كالحلم ــ عمليات اعادة انشاء جامع أبى العباس المرسى فى حوالى ١٩٤٣ ــ كنت أيامها فى حوالى الخامسة من العمر ــ دمرته عاصفة كهربية فى ١٩٣٥ (كان الجامع ــ قبل ذلك ــ صغيراً ومتواضعاً ، يعانى شيخوخة أعوام تبلغ المائتين أو نحوها ، منذ أنشئ فى القرن الثامن عشر) . أعيد بناؤه منذ ١٩٣٩ ، وكنت أمر بصحبة أبى أمام عمال البناء وهم يحملون قصاع الأسمنت

المخلوط بالزلط ، يستحثهم النغم الأشهر : هيلا ليصة !..
وتم البناء فى ١٩٤٣ ، وإن افتتح رسمياً فى ٦ مايو ١٩٤٥
. فلما كبرت ، صرت أقضى فترة مابين صلاتى العصر إلى العشاء كل يوم فى أبى العباس ، للصلاة والاستذكار ..

كنت أتصور أن الضريح المكسو بالقماش الأخضر يضم رفات سلطان الإسكندرية ، سيدى المرسى أبى العباس . ثم علمت أن الضريح لايعدو الرمز ، المعنى ، الدلالة . هنا يقف الناس ويطوفون ، يتلون آيات القــرآن الكريم ، يقرءون الأوراد والأحزاب والأدعية ، يبثون السلطان شكاياتهم ومايعانون . أما الضريح الأصلى فهو فى غرفة تحت الأرض ، وإلى جواره مقبرة أخرى تضم رفات ولدى المرسى : محمد وأحمد . وللضريح مدخل خاص من خلف الجامع .

***

تعرفت فى أبى العباس إلى مالم يكن يتاح لى التعرف إليه ، لولا ترددى على جامع سلطان الإسكندرية . معتقدات وعادات وتقاليد وأنماط حياة . ونشأت بينى وبين المترددين على الجامع من الشبان للاستذكار وللصلاة مثلى ــ

صداقـــات دائمة ، وطارئة ، وانغمست فى أنشطة دينية وصلت إلى حـــد " الدروشة " . قررت ــ فى فورة من الحماسة الدينية ــ أن أصوم الدهر فلا أفطر أبداً ، وأخلصت فى تنفيذ قرارى فعلاً ، فأضفت إلى تأدية الصلاة فى أوقاتها صياماً متصلاً . حتى وجبة السحـــور كنت أعانى عدم تناولها ، لا لإهمال من أبى فى ايقاظى ، وإنما لتعمد ، حتى يقرصنى الجوع نهار اليوم التالى ، فأنهى الصيام . ولما توضح لأبى اصرارى على الصوم ، ولأنى كنت أعانى هزالاً لا يصح معه الصوم ، فقد لجأ أبى إلى أمام جامع سيدى على تمراز القريب من بيتنا ، ورجاه أن يقنعنى بصوم يوم واحـــد فى الأسبوع ، لخميس أو الاثنين . وقال الرجل ــ فيما أذكر ، ضمن نصائحه ــ إن الله يعاقب المرء على ايذائه لنفسه . واقتنعت ، واكتفيت بالصوم كل خميس . ثم اقتصر صومى على شهر رمضـــان ، وهو ماأحرص عليه منذ صباى إلى الأن .

***

لما بدأ تعرفى إلى التسميات السياسية من مبادئ وأحزاب وتنظيمات وشعرات ، وكلمات مبهمة وبرّاقة وتثير

الإعجاب والابتسام والغضب ، كانت الشيوعية ــ كما قلت لك ــ فى مقدمة التسميات السياسية التى توضحت دلالاتها ــ فى تصورى ــ بالقراءة والمناقشات والتعرف المباشر . الملاحظة الثابتــة التى لم تتغير فى نظرتى إلى الشيوعية ، منذ سنى الطفولة إلى الآن ، انها كانت هى التهمة التى تحرص السلطة الحاكمة على الصاقها بالأصوات المعارضة غير التقليدية . وكانت التهمة نفسها هى مبعث الذعر الحقيقى أمام كل تحرك نضالى ، تعد له القوى التقدميــة ، حتى تلك التى ترفض الماركسية فى برامجها . فبصرف النظر عن اعتبار الشيوعية من المبادئ الهدامة ، التى يقابل بالسجن اعتناق أى مواطن لها ، كانت الشيوعية ــ كما حاولت السلطة ، وأفلحت فى تصويرها للملايين من أبناء الشعب المصرى ــ وأنا مواطن مصــرى ــ أمراً بالغ البشاعة والغرابة . ولعلى أستطيع التأكيد ــ فى ثقة ــ أن السلطة الحاكمة والاستعمار البريطانى معاً ــ قد أفلحا فى تخويف القوى السياسية والاجتماعية من تأثيرات الشيوعية ، حتى تلك التى جعلت شاغلها ــ بحق ــ قضايا الجماهير ومشكلاتها ، وتحددت أهدافها فى أطر تقدمية . الشيوعية ــ

على سبيل المثال ــ لا تعترف بالزواج ، ومن حق أى رجل وامرأة أن يقيما علاقة جسدية ، بلا رباط اجتماعى أو قانونى ، على أن تتكفل الدولة بتربية الأطفال . وطبيعى أن الرجل لا يقصر علاقته بامرأة واحدة ، وأن المرأة ــ أيضاً ــ لا تقصر علاقتها برجل واحد ، فالكل أزواج للكل ، وليس ثمة رباط من أى نوع . الشيوعية تعنى " المشاع " ، والمشاع ــ فى العلاقات الجسدية ــ أن تصبح كل امرأة ، زوجاً لكل الرجال ، وأن يصبح كل رجل زوجاً لكل النســاء . أما الأطفال فإنهم يلحقون ــ فور ولادتهم ــ بدور حضانة تملكها الدولة ، فلا يغادرونها إلاّ إلى المدارس ، فالجامعات والمعاهد العليا . ثم يلتحق الخريج ــ فور تخرجه ــ بالجيش الأحمر ، ليبدأ ــ بعد فترة تجنيده ــ حياته كمواطن مسئول ، والشيوعى لايعــد كذلك مالم يرفض وجود الله ، والذى يجاهر بإيمانه ــ أو يخفيه ــ يجد نفســه عرضة لعذابات ، أقلها السجن ، وربما حكم عليه بالإعدام ..

وعثرت فى مكتبة أبى على " آثرت الحرية " الكتاب الذى ترجمه زكى نجيب محمود لمواطن روسى فر ــ بأعجوبة ــ من جحيم الشيوعية . تجسدت ــ فى تصورى ــ

لسنوات ــ سجون ومعتقلات وعمليات اعدام بالجملة ، وسيطرة حتى على ترددات الأنفاس . تكونت الجزئيـــات فى اللاوعى من أحاديث بعد أصدقاء أبى ــ ولا أذكر أن أبى قال أمامى فى الشيوعية برأى محدد ــ ومن عبارات الجدران التى كنت أتعلم القدرة على القراءة فيها ، ومن كلمات متناثرة فى عظات الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع سيدى على تمراز ، بين صلاتى المغرب والعشاء ..

وروت لى ابنة عمتى عن " حدتّو " ، ذلك التنظيم السرى الذى جعل من دروس التقوية وسيلة لاجتذاب تلاميذ وتلميذات المدارس (بالمناسبة : هزمنى التحيّر ، وأعتقد أن الحيرة لاتزال تتملكنى حتى الآن ، وأنا أقرأ على الجدران ــ فى أواسط الأربعينيات ، والاستعمار قائم فى الأرض المصرية ، والخطر الصهيونى فى فلسطين ــ نداء غريب : نريد الخبز بدلاً من السلاح . ولماذا لا نطلب الخبز والسلاح معاً ؟!) ..

ثم أتاحت لى الظروف أن أتعرف ــ بصورة مباشرة ــ إلى العاملين فى حركة السلام ــ هذا كل ماأذكره من اسمها ــ وكان لها مكتب فى شارع فرنسا ، من بين أنشطته

اصدار المطبوعات السياسية والثقافية . ولأنى كنت أثق فى قدراتى الأدبية فى المرحلة بين الطفولة والصبا ، فقد سعيت إلى المكتب ، لعله ينشر بعض ماكتبت . كانوا ثلاثة من الشبان ، أعمارهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين . لم يقبلوا ــ أو يرفضــوا ــ ماسعيت إلى نشره ، ولم يحاولوا قراءته اصلاً . بذلوا كلمات مشجعة ، وتحدثوا عن الأهداف التى يعمل لها المكتب . ولم أفهم ــ فى الحقيقة ــ شيئاً . كانت الكلمات أكبر من ثقافة صبى فى نحو الثانية عشرة ، ومن وعيه وإدراكه . بل إنى أحاول استعادة بعض تلك الكلمات الآن ، فلا أذكر شيئاً . كل ماأذكره أنى أعجبت بالكلمات التى قالها الشبان الثلاثة ، فلم أحاول حتى أن أعرض كتاباتى التى تطلب النشر عليهم ..

وغادرت المكتب بوعد ــ أعلنته ــ أن تتواصل صداقتى بالشبان الثلاثة ، وبقرار ــ لم أعلنه ، أن أصبح شيوعيا!

***

لم أكن قرأت عن الشيوعية شيئا ، ولم أكن خرجت من حديث الشبان الثلاثة بغير المعنى ــ الكلمات كانت غاية فى

الصعوبة ــ ان الهدف النهائى للشيوعية توفير الحياة الطيبة لكل انسان ..

كنت ــ أيامها ــ أتردد على مبنى الطلبة الملحق بالمعهد الدينى بالمسافرخانة ــ وهى غير مسافرخانة القاهرة ــ لزيارة صديق من طلبة المعهد ، تعرفت إليه ــ مصادفة ــ فى سينما الأنفوشى . كان من أبناء الدلنجات ، وأذكر من اسمه : تعلب . وأوضح ــ فى حديثه ــ أنه يهوى الأدب . وكانت تلك أرضية مناسبة لصداقتنا . والحق أنى لم أعد أتردد على المعهد الدينى لمجرد صداقتى للأديب تعلب . فقد أحببت المكان ، وأسلوب الحياة فيه : الطلبة بجببهم وعمائهم ، أدوار الشاى التى لا تقل عن ثلاثة ، طريقة المذاكرة التى تقتضى هز الرأس بآلية كبندول الساعة ، الأصوات المتداخلة والمدغمة ، تشكل ــ فى مجموعها ــ تآلفاً هارمونياً عجيباً ، الحيـــاة التى يشغى بها المبنى أربعاً وعشرين ساعة . وثمة سبب آخر ــ أصارحك به ــ كان يشدنى إلى المعهد الدينى ، وتأمل طلبته وقاعاته وحجراته وسلالمه وأبوابه . حتى النوافذ الضخمة والأبواب الحديدية ، كنت أطيل التحديق فيها ، أحاول أن أجد لها موضعاً فى الصـــور الكثيرة التى

رسمها أبى فى مخيلتى بأحاديثه عن المواقف العدائية لطلبة المعهد الدينى ضد الإنجليز والسراى وحكومات الأقلية ، والتى تمثّلت فى عمليات اعتصام ومظاهرات وتفجير قنابل وتوزيع منشورات (كما علمت ، فقد بدأ المعهد نشاطه فى ٢٦ ابريل ١٩٠٤ ، حين صدر قرار سلطانى يتعيين شيخ للمعهد بإسم " شيخ علماء الإسكندرية " . وكان عدد طلبته فى العام الأول ٣٤١ ، ثم زاد ذلك العدد ــ فى الأعوام التالية ــ وتضاعف . وكان التعليم فى المعهد السكندرى يفضل التعليم فى الأزهر نفسه . كان المعهد أنبوبة اختبار لحركة اصلاح التعليم الأزهرى كما تصورها الإمام محمد عبده ، والتى اختار لها مجموعة من نوابغ تلاميذه مثل الشيخ محمد شاكر والشيخ عبد الله دراز وغيرهما)

لم أكن أجد فيمن حولى وفيما حولى مايثير أو يلفت الانتباه : الأجساد الضامرة ، التصرفات العفوية ، الضحكات الرائقة ، المناقشات التى كأنها شجرة لها عشرات الأفرع ومئات الأوراق . حتى تشققات الجدران ، كنت أحاول أن أربط بينها وبين الأحداث التى لابد انها امتدت إلى داخل المعهد نفسه . لم أشهد ــ فى الحقيقة ــ أياً من تلك الأحداث

، وإن تقد إلى ذاكرتى مظاهرة متلاصقة الصفوف لطلبة المعهد الدينى ، فى انحناءة المسافرخانة إلى شارع صفر باشا ، كأنها لقطة ثابتة ، فهى لاتملك ماقبل أو مابعد ، وتدع التفصيلات للخيال يجسّدها على النحو الذى يريد ..

ساعد على انبهارى بطبيعة الحياة فى المعهد ، أنى كنت أحاول كتابة القصة القصيرة ، بل انها كانت مبعث صداقتى للأديب تعلب . جرنا الحديث فى ظلام سينما الأنفوشى إلى موضوعات شتى . أبدينا ملاحظـــات فى سذاجة قصة الفيلم ، وقال إنه يكتب القصة ، وقلت إنى أكتب القصة ، وذكرت له عنوان بيتى ، وشرح لى الطريق إلى المعهد الدينى . وعندما ملت من شارع الحجارى إلى المسافرخانة ، ثم إلى اليسار ليستقبلنى المعهد ــ للمرة الأولى ــ بالبوابة الحديدية الضخمة ، فإنه لم يكن فى بالى إلاّ أن ألتقى بصديقى الجديد ، يعرض علىّ محاولاته ، وأعرض عليـــه محاولاتى ، ونتناقش فيما قرأناه ، وآرائنا فى الفن ..

لكن الطبيعة المتميزة التى كان يصخب بها مسكن الطلبة ، احتوتنى تماماً . بدت عالماً غريباً ، وثرياً ،

ومناقضاً لطبيعة بيئتى الساحلية . الريف فى قلب المدينة ، داخل هذا المبنى ذى الطوابق الثلاثة . العادات والتقاليد والقيم والطعام والأزياء . شبان من كفر الدوار والمحمودية وايتاى البارود والدلنجات ودمهور وحوش عيسى ودسوق ، يعدون أطعمة يدعوننى إليها ، فأعتذر . تبدو مغايـــرة للطعام الذى أتناوله فى بيتنا . أكتفى بالشاى . لا أحبه لذاته ، وإنما للأكواب الصغيرة يصب منها الشاى من بزبوز براد ، أخفى السواد لونه الحقيقى . كلما وضعت الكوب الفارغ ، قدّموا لى التالى ، حتى العد الثالث !

امتدت صداقتى بتعلب إلى طلبة آخرين . طالت الأحاديث . وقلت فى الشيوعية كلاماً كثيراً ، وإن لم يجاوز المعنى الذى خرجت به من لقائى بالشبان الثلاثة أعضاء حركة السلام : ان الهدف النهائى للشيوعية هو توفير الحياة الطيبة لكل انسان !.

ثم قبلت ــ بشجاعة ، أو بغباء ــ مناظرة مع أحد الطلبة حول الفرق بين الإسلام والشيوعية . ولأنى كنت أعانى عدم الفهم لتعاليم الإسلام ، ولمبادئ الشيوعية فى آن ، فقد حاولت أن أختصر المناظرة ، لأصل إلى النهاية التى

تجاوز بى الحرج !. علا صوتى ، ونظراتى تتأمل تأثير ما أقول فى المشايخ الصغار من حولى : إن الإسلام والشيوعية يلتقيان فى هدف واحد ، هو توفير الحياة الطيبة لكل انسان !. وأنهيت المناظرة .

وحين عدت إلى المعهد فى اليوم التالى ، كانت فى انتظارى مفاجأة . جلست بين المشايخ الصغار ، أنتظر بداية الحديث ، وأدوار الشاى ، والحياة التى أحببتها .. لكن الدقائق تقضت بلا حديث ولا أدوار شاى ، ونظرات المشايخ المتأملة ، أحسست كأنها التصقت ــ لثباتها ــ بجسدى ..

قلت :

ــ أستأذن ..

فاجأنى أحد المشايخ بالسؤال :

ــ هذا الإطار الأحمر فى بيجامتك ، هل هو شعار المذهب الشيوعى ؟ (لم يكن يشغلنى ــ حينذاك ــ أن أرتدى القميص والبنطلون ، أو البيجامة !)

كاد الزهو يتسلل إلى . أفلحت فى تصوير نفسى شيوعياً إلى الحد الذى بدا معه المشايخ يجدون فى ثيابى تعبيراً عن ايمانى بالمذهب .. لكن الأصوات المتداخلة

للمشايخ ــ فى اللحظة التالية لإلقاء السؤال ــ بددت الزهو والصمت . قالوا كلاماً كثيراً ، ملخّصه أن ترددى على المعهد لم يعد مقبولاً ، وانه قد صدر قرار من العميد بمنع دخولى !

تداخلت فى نفسى مشاعر متناقضة : الزهو لخطورتى ، والحزن لطردى من المكان الذى أحببته ، والخوف مما قد يترتب على ماحدث من نتائج سلبية ..

وكان ذلك آخر عهدى بالمعهد الدينى .

الإسكندرية مدينة أوروبية

كل الكتابات التى تعرض للحياة فى الإسكندرية ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تؤكد أنها كانت أشبه بمدينة أوروبية الطابع : المبانى والمؤسسات والشوارع والميادين والملاهى . وكان الأوروبيون يشكّلون قسماً كبيراً من سكانها..

تكثّف الوجود الأوربى فى الإسكندرية منذ دخول الحملة الفرنسية مصر . وبعد تولّى محمد على الحكم ، ظلّت أعداد الأوروبيين فى تزايدها ، حتى بلغ عدد المتاجر الأوروبية نحو مائة متجر ، فضلاً عن عشرة مطاعم للفرنسيين والإيطاليين والإنجليز ، وبعض القهاوى والمخابز الافرنجية . وكان وجهاء الجاليات الأجنبية يقيمون فى الإسكندرية باعتبارها الميناء الرئيس للبلاد ، وبوابته من ــ وإلى ــ دول العالم . وكان لتفضيل الأجانب للإسكندرية على سواها من مدن مصر ــ بما فيها القاهرة ــ بواعثه العملية ــ طبع الأجانب ! ــ وفى مقدمتها استخدام الميناء فى التصدير والاستيراد . فليس ثمة نفقات نقل داخلى كمـــا هى الحال بالنسبة لبقية المدن ، ومناخ المدينة يميل إلى الاعتدال

النسبى ، بالإضافة إلى إمكانية انشاء المصانع والمحالج والشركات التى يعد التصدير والاستيراد سمة أساسية لنشاطها . لم يكن العالم قـد عرف الطائرات ولا المطارات . والقادم من بلاد بعيدة يركب الدواب فى أحيان قليلة ، والسفن فى أغلب الأحيان . والإسكندرية هى ميناء مصر الرئيس ، وبها مايفوق عاصمة البلاد من مقومات المدنية الحديثة . حتى الصحف ـ ومنها " الأهرام " ـ كانت تصدر من الإسكندرية .. لذلك كله ، كان الأجانب يفدون إلى مصر . يواصل القلة طريقهم إلى القاهرة ، أو إلى الأقاليم (قهاوى وحانات القرى التى يملكها أروام ، ظاهرة امتدت إلى أواسط الخمسينيات) أما الكثرة ، فقد استقروا فى الإسكندرية ، ينشئون ـ ويعملون فى ـ المتاجر والمصانع الصغيرة ـ الكبيرة فيما بعد ـ والقهاوى والحانات ، ويضفون الطابع الأوروبى على المدينة ، وهو الطابع الذى أتصور أن بعض معالمه ـ رغم التشوهات التى حاقت بالمدينة ـ ماتزال قائمة ، تذكرنى بالوردة التى تذبل ، فلا تغيب رائحتها ! .

ثمة تقدير أجنبى لعدد الأجانب بالإسكندرية فى ١٨٦٨ ، بأنه قد بلغ حوالى مائة ألف نسمة ، بما يصل إلى نصف

سكان المدينة تقريباً . وفى مطالع القرن ، جاوز عدد الأجانب المائة ألف ، فى حين كان مجموع الأجانب فى مصر كلها ١٥٠ ألف أجنبى ..

ومع أن الفترة من بداية الحرب العالمية الثانية إلى نهايتها ، شهدت طفولتى الباكرة ، فإنى أذكر أجهزة الرادار والمدفعية المضادة للطائرات المتناثرة فى امتداد الكورنيش ، يقف وراءها جنود الإنجليز . وأذكر الآلاف من جنود الاحتلال كانوا يمرون أمام بيتنا ، مشاة ومدفعية وبحرية ، انجليز وأفارقة وهنود ــ فطنت إلى الفوارق فيما بعد ! ــ وكان أهلنا يخيفوننا من الأفارقة تحديداً . انهم ليسوا بشراً مثلنا ، ففى مؤخرة كل منهم ذيل !.. وسألت أبى ــ فى خوف ــ عن صحة ذلك ، فنفاه بدهشـــة : انهم بشر مثلنا وليسوا قردة !.. لكننى ظللت أفكر فى تأكيدات الجميع مقابلاً لنفى أبى وحده ، حتى حاذانى جندى افريقى وأنا ألعب مع أخى فى الشارع الخلفى . مددت يدى ــ بالفضول ــ أتأكد من وجود ذيل !.. وفوجئ الجندى بما فعلت ، وزادت حيرته ، وربما تخوفه ، حين أسرعت ــ بكل قوتى ــ وأخى يتبعنى ــ كالعادة ــ إلى داخل البيت . ووقف الجندى أسفل السلم

يتطلع إلينا بتساؤل وغضب ، حتى فتحت أمى الباب ، فارتمينا فى حضنها !. ومن يومها ، لم يبرح الخوف نفسى لمرأى أى جندى افريقى . أتوهم انه هو الذى حاولت تبين الذيل فى مؤخرته !..

وعلى الرغم من مضى عشرات السنين على تلك الواقعة ، فإنى تذكرتها حين قاد سيارتى سائق سنغالى ، أسود البشرة ، من مطار نواكشوط إلى الفندق داخل العاصمة الموريتانية !.

وظلت الإسكندرية ــ إلى الحرب العالمية الثانية ــ بيئة بحر متوسطية ، بكل خصائصها ، امتداداً لأوروبا على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط . ثمة الحى اليونانى ، والحى التركى ، والحى الإيطالى ، والحى المغربى إلخ . وكانت اللغات التى يستمع إليها المرء فى الشركات الكبرى ، ومكاتب التصدير والاستيراد ، هى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والأرمنية ، والعربية أحياناً . أذكّرك بأن مهنة أبى كانت هى الترجمة من لغة أجنبية إلى لغة أخرى ، أو من إحدى هذه اللغات إلى العربية . كذلك فإن معظم الشركات التى تعامل معها أبى ــ كمترجم ــ طيلة

حياته ، كانت شركات أجنبية ، مثل الشركة الألمانية للفحومات الحجرية ، وشركة كورى للأقطان ، وغيرها .. بالإضافة ــ طبعاً ــ إلى شركات وهيئات وطنية ، كالغرفة التجارية بالإسكندرية ، وشركة الجراية للورق . وقد أفدت من ذلك كله فى روايتى " النظر إلى أسفل " .

وكان اليونانيون ــ أو الأروام ــ هم الجالية الأجنبية الظاهرة فى أحياء الإسكندرية . دكاكينهم وقهاويهم وباراتهم وتجمعاتهم ، امتدت إلى الأحياء الشعبية . لم يقتصر نشاطهم على عمل بذاته ، وانما مارسوا كل المهن . الرومى صاحب قهوة وجرسون وسائق وطبيب ومهندس وبارمان ، أىّ مهنة تدر دخلاً طيباً . وكان أبى يعجب للغاية بطريقة تخليل الخواجة خريستوفيدس البقال للطرشى البلدى !.

وإلى مابعد قيام ثورة يوليو بأعوام ، كان للأجانب فى الإسكندرية وجودهم ، ونشاطهم الذى يصعب اغفاله .. وهو نشاط كان يستهدف ــ فى غالبيته ــ تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمدينة . يقول عامر وجدى لماريانا فى رواية نجيب محقوظ " ميرامار " إنه كان ينبغى عليها أن تهجر الإسكندرية إلى اليونان . فتهتف فى دهشة : ولكننا

نحن الذين خلقناها ؟!. ومع أن ماريانا كانت يونانية الجنسية ، وكانت تنطق العربية بلكنة أجنبية ، فإنها لم تكن قد رأت اليونان مرة واحدة فى حياتها ، فهى قد ولدت فى مصر ، وعاشت فيها إلى الممات .

وحتى عام ١٩٥٦ أو نحوه ، كانت الجاليات الأجنبية منتشرة ، حتى فى الأحياء الشعبية . وقد أتاحت تلك " الميزة " للإسكندرية أن تكون عاصمة ثقافية لمصر . صدرت عشرات الصحف العربية والإنجليزية والفرنسية واليونانية والإيطالية ، وظهرت ــ للمرة الأولى ــ مواهب سلامة حجازى وسيد درويش فى الموسيقا والغناء ، ومحمود سعيد وسيف وانلى وأدهم وانلى ومحمود موسى وأحمد عثمان فى الفن التشكيلى ، والنديم والتونسى وأبى شادى وشكرى والنشار والشوباشى وعثمان حلمى فى الأدب والشعر ..

وحين تلاحقت الأحداث السياسية فى ١٩٥٦ : سحب الولايات المتحدة والبنك الدولى عرض تمويل انشاء السد العالى ، واعلان تأميم قناة السويس ، والعدوان الثلاثى ، وتكشّف الوجه القبيح للغرب الأوروبى .. أحدث ذلك كله

تأثيره فى هجرة معظم الأجانب من الإسكندرية ، ومن المدن المصرية عموماً ..

ومع أن بحرى من الأحياء التى يتغلب فيها العنصر الوطنى بصورة واضحة ، فلعلى ألفت نظرك إلى روايـــة جميلة اسمها " غالانوس " للكاتب اليونانى ميشيل بيرزيس ، ترجمها الدكتور حسن عون ، وتعرض لحياة الأجانب فى مدينتى : الإسكندرية ..

كانت صورة الحياة مغايرة تماماً لما أصبحت عليه الآن . كان يقطن بحرى مئات الأسر اليونانية ، التى أنشأت مدارس خاصة لأبنائها . وكانت هناك بارات وقهاوى تقدم السهرات والشراب والرقص والغناء ، غالبية روادها ــ بالطبع ــ من الأجانب . وربما استلهم مخرجو السينما المصرية تلك البارات والقهاوى ــ المندثرة ــ لتكون بعداً أساسياً فى الأفلام التى جرت أحداثها فى بحرى ، مع أن طفولتى الواعية تعود إلى أواسط الأربعينيات . ولا أذكر أنى شاهدت ، منذ ذلك الحين ، فى طول بحرى وعرضه ، باراً أو قهوة ، لتقديم اللهو البرئ ــ أو غير البرئ ! ــ لرواده !. وكما يروى ميشيل بيريزيس فقد كانت منازل شارع فرنســا

أشبه بالوكالات التى يقطنها الأوروبيون الوافدون . أما الصورة فى ميدان محمد على ــ ميدان القناصل كما كان يسمى ــ فقد كانت تتحدد فى أعداد هائلة من البشر " كقطعان النمل لا تمل السير هنا وهناك " (الرواية) وعربات سوارس وحانطور وجمال تنقل الركاب إلى داخل المدينة وخارجها ، وميدان محمد على ــ كما تعلم ــ هو ميدان المنشية ، ومعناها المنطقة المنشأة ، وتدين بوجودها الرئيس للأجانب الذين انصرفوا لعمليات تصدير القطــن المصرى إلى مصانع لانكشير الإنجليزية ..

وعلى الرغم من تكثف إقامة الأجانب فى الإسكندرية ، فى العطارين ومناطق الرمل ، فإن عيادة الدكتور مردروس ، الطبيب الأرمنى الذى كان يقيم فى الطابق الأول من بيتنا ، ورواد قهوة المهدى اللبان ــ أسفل البيت ــ من الأروام والأرمن والإيطاليين ، يرطنون بلغاتهم التى يحادثهم بها أبى أحياناً . أسأله عنها ، فيجيب وهو يضحك . والبقال اليونانى فى شارع الميدان ــ خريستوفيدس ــ لا يشترى أبى إلاّ منه . يثنى على بضاعته ، وانه فنان طعام لا مجرد بائع .. تعرفت من ذلك كله ــ وغيره ــ إلى حياة الأجانب ، وإلى

عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم . حتى علامة التثليث التى طالما فاجأتنى وأثارت تساؤلى فى بدايات وعيى ، تفهمتها ــ فيما بعد ، بعد أن فهمتها (أصارحك أن كلمة مسيحى أو يهودى لم تكن تشغلنى ، أو تضع فرقاً بينها وبين كلمة مسلم ــ صفتى الدينية ــ إلى مابعد حرب ١٩٥٦) ..

أذكر الأسرة التركية التى كانت تقطن شقة فى الطابق الأرضى من بيت على الجانب المقابل لبيتنا . يغيب عن بالى صور أفراد الأسرة : الزوج والأبناء ، وتغيب ظروف الأسرة ، ومدى اقترابها ــ وابتعادها ــ من سكان شارع اسماعيل صبرى ، فضلاً عن وظيفة الزوج ، ومتى بدأت سكناهم للحى ، ومتى كانت هجرتهم له . ما أذكره هو وجه الزوجة الذى كان يطل من النافذة ، أحياناً . كان ــ بالنسبة لى ــ وجهاً غريباً ، وجميلاً فى الوقت نفسه .. فالبشرة تقطر صفاء ورقة ، والحمرة الهادئة تختلط بالبشرة البيضاء ، والقسمات المنمنمة ــ فيما عدا العينين اللتين كأنهما بحر صافى الزرقة . كنت صغيراً ، وكان حبى للجمال فى ذاته ، فلا تشوبه رغبة ما . لاحظت أنى كنت أطيل الوقوف فى النافذة المطلة على شارع اسماعيل صبرى ، وأتوقف عن

اللعب مع الأولاد إذا انفتحت نافذة الدور الأرضى ، وأطل الوجه الملائكى !.

أذكر كذلك أسرة يهودية كانت تسكن بالقرب من شارع الميدان . لعبت مع أبنائها ــ أولاد وبنات ــ فى الشارع الخلفى الموازى لجامع سيدى على تمراز . تناقشنا ، واتفقنا ، واختلفنا ، وتحدثنا عن الآباء والأمهات والظروف الأسرية .. لكن اختلاف الديانتين ظل ــ بلا نصيحة أو توجيه ــ فى موضع منعزل ، لا نتناوله أو نقترب منه ، فنحن نحمارس حياتنا بمطلق الطفولــة ، نتوضأ فى ميضأة جامع على تمراز ، ونقلد الصفوف فى صلاتها ، ونحاول فهم عظات الإمام فى دروس المغرب ، ونعجب لأحاديث أبناء الأسرة اليهودية عن صلاتهم التى تقام بلا موعد محدد ، وأنها بتعدد مناسبات النهار ، بدءاً من الاستيقاظ ، إلى التوجه للنوم ..

وكان تعرفى إلى الشاعر العظيم ناظم حكمت من خلال صداقة طارئة لشاب يونانى فى العطارين . استوقفنى قبل أن أدخل بيتنــا ، وسأل عن الطريق إلى سراى رأس التين . وصفت له الطريق ، فأضاف سؤالاً وثانياً وثالثاً . ولاحظ فى يدى كتيباً يضم قصائد زجلية ، فقال لى إن الشعر

الحقيقى يختلف عن تلك الكلمات المنظومة العابثة . وأفاض ــ بعد أن دعوته إلى بيتنا ــ فى الحديث عن الشعراء اليونانيين ، وإن توقف طويلاً أمام الشاعر التركى ناظم حكمت . بدا شديد الإعجاب به ، كأنت ــ الشاعر ــ نبى أو قديس ! . وصحبنى ــ فى يوم تال ــ إلى بيته فى شارع خلفى مواز لشارع عبد المنعم . تعرفت إلى أمه . سيدة فى حوالى الخمسين ، بدينة لا تخطئ العين أرومتها ، وقدمت لنا الشاى أخته الصغيرة ياسمين . تصدّقها لو قدّمت نفسها إليك بأنها يونانية ، وتصدّقها لو قالت إنها مصرية . لم تكن تقطع ــ عكس الأم والأخ ــ بملامح محددة . وعرفت ــ فيما بعد ــ أن الأم ، لما مات زوجها ، تزوجت من تاجر مصرى ، فأنجبا ياسمين التى زاوجت ــ فى تفوق ــ بين المصرية والإغريقية ..

ولعلى أتفق مع نجيب محفوظ وعبد الحميد السحار واحسان عبد القدوس وغيرهم من أدباء الأربعينيات ، على أن الجاليات الأجنبية ، والمتمصرة ــ كانت هى واسطة " الجيل " إلى الحياة العاطفية والجنسية . وكان الطرف المقابل فى القبلة الأولى لكل من أبطال الروائيين الثلاثة فتاة

يهوديـــة ، هى التى أغرت ، وحرّضت ، وأغمضت عينيها في ترقب . وبالنسبة لى ، فقد انهزمت فى الكوتشينة أمام الجارة اليهودية التى لم تكن جاوزت الرابعة عشرة . وانتظرت العقاب الذى يجب أن يناله الخاســر ، فقالت ببساطة ــ أخجلتنى ــ أمام الجميع : أبوسك !..

دنيـــــا جديــــــــدة

أذكر أن خطوط الاتصال بالجنس الآخر كانت ــ فى بعض الأحيان ــ واهية . وكانت ــ فى معظم الأحيان ــ مقطوعة . وإذا كنت قد لامست النجاح ــ فى مرات قليلة ــ فإن مبعث ذلك ــ بالتأكيد ــ للمصادفة ، ولجرأة الجنس الآخر ..

كان بيتنا ــ كما قلت لك ــ يطل على الجهات الأربع . وكان البيت المواجه ، فى شارع رأس التين ، يتبع الأوقاف ، ويعانى الشيخوخة ، حتى أننى كنت أغالب التردد ، كلما جازفت بارتقاء سلالمه . أما لماذا المجازفة ، فلأن مربيتى أم عايدة (الإسم مستعار) كانت تسكن ــ مع أولادها ــ احدى غرفه . وكنت أتوق لاقتحام عالم الجنس الغريب الذى أطلت بى أم عايدة ــ بمداعباته يديها ، ونظراتها ، وكلماتها الموحية ــ من بعض نوافذه . وتعرفت إلى فاطمة ــ جارة أم عايدة : فتاة فى نحو السادسة عشرة ، وإن بدت أكبر من عمرها . تذكّرنى بالوصف الذى أطلقه فرج القواد على حميدة زقاق المدق ، فهى عاهرة بالسليقة .. لكننى لم أتنبه ، أو أنى كنت أعانى خجلاً شديداً . وكما

أتذكر الآن ، فقد حاولت فاطمة كثيراً ، فلم أتنبه ، حتى سألنى ولــد شقى ــ اسمه سيف ــ وهو يقف معى فى الشرفة المطلة على شارع رأس التين :

ــ ماعلاقتك بهذه البنت ؟..

قلت بصدق :

ــ جارة أم عايدة ..

قال الولد :

ــ إذن .. يجب أن تقوم بينكما علاقة .. انها تدعوك بنظراتها !

تظاهرت بإهمال الملاحظة . ثم أعدت ترتيب المواقف ، فوجدت أن اقامة علاقة مع فاطمة مسألة وقت ، وانه يجب اختصار هذا الوقت !..

وبنفسها ، جاءت فاطمة إلى شقتنا . فتحت الباب لأجدها أمامى . سألت ــ وهى تبتسم ــ عن شقيقتى ، وانها ــ فاطمة ــ تريد استخدام ماكينة الخياطة . وتعددت زيارات فاطمة ، وإن لم تحاول الانشغال عما بيديها . تنهيه ، وتذهب ..

ويوماً ، وجدت فاطمة وحدها فى الشقة . كان أخواى يلعبان فى الشارع الخلفى . وكانت شقيقتى تزور جيران الطابق الخامس . ووقفت على باب الغرفة أرقب فاطمة ، تحيك ثيابها على الماكينة ، وتدندن . وقررت ــ فيما يشبه الجنون ــ أن أتصرف كرجل . قلت :

ــ فاطمة .. أنا عاوز منك حاجة ..

قالت دون أن تتوقف :

ــ حاجة ايه ؟..

ــ بس احلفى انك ماتقوليش لحد ..

علا حاجباها :

ــ مش اعرف حاجة ايه ؟!..

ــ احلفى الأول ..

فى استسلام :

ــ أحلف ..

ــ برحمة أمك وابوكى ..

ابتسمت :

ــ برحمة أمى وابويا ..

ــ واللى ميتين لك ..

ـــ واللى ميتين لى ..

ـــ أنا خايف لتقولى لاختى ..

ـــ ياأخى .. مش حاقول ..

ـــ أنا .. عاوز .. بوسة ..

وحتى تدرك خطورة ماطلبت ، فالحق أنى لم أكن تذوقت طعم القبلة فى فم فتاة من قبل ، بل ولم أكن تحدثت حول المعنى مع أية فتاة . وانتظرت ـــ دهراً ـــ قبل أن ترفع فاطمة رأسها ، وتتجه إلى بنظرة ، أدركت ـــ فيما بعد ـــ أنها كانت مشجعة ، وقالت وهى تضم شفتيها :

ـــ آسفة ياأستاذ !..

كان المفروض ـــ أستعيد ماحدث ! ـــ أن أنتزع القبلة المشتهاة ، لكن الرفض جرح مشاعرى الغاضبة ـــ وهى ، للأسف ، سريعة التأثر ـــ فقلت من بين أسنانى :

ـــ أرجوكى .. ماتكلمنيش تانى !..

وبالفعل ، خاصمت فاطمة من يومها ، حتى جرت الأعوام ، وفهمت .

***

لم أكن ــ إلى ماقبل البلوغ ــ أعرف الفرق ــ تشريحياً ــ بين الشاب والفتاة (أظنك فاهمنى !) وكانت ثقافتى الجنسية تقتصر على هوامش ومعان مجردة ، التقطتها من أصدقائى وزملاء الدراسة ، فلا تواتينى جرأة على السؤال : وماذا بعد ؟.. أو أحاول التعرف إلى تفصيلات ، أتيح لى ــ بعد ذلك ــ معرفتها ..

كانت أول علاقة جنسية لى بما لم أتوقعه ، أو أعددت له نفسى : مات أبى ، فأقام أخى الأكبر فى بيت عمى بمحرم بك ، وأقامت شقيقتى فى بيت عمتى بالرصافة ، بينما سافر أخى الأصغر إلى القاهرة ليقيم فى بيت عمتى بالمنيرة . أما أنا فقد فضلت أن أظل فى بيتنا ، لا أهجره . وكنت أستقبل ــ أحياناً ــ بعض أقارب أبى ، أو أمى ، أو بعض أصدقاء الأسرة ، يسألون عن الأحوال ، ويعرضون المساعدة . ولاحظت أن أم عايدة كانت تكثر من التردد على الشقة ، تعد لى الطعام ، وتغسل ثيابى ، وتثير ــ ونحن نقف فى البلكونة المطلة على الميناء الشرقية ــ ملاحظات تتصل بالجنس على نحو ما . وجاوزت أم عايدة تلميحاتها ــ ليلة ــ إلى البوح . وذكرتنى باحتضانها لى وأنا طفل ، وسكوتى عن مداعباتها

بعد أن كبرت . ثم التمعت عيناها ببريق لم أتعرف إليه فى فتاة ولا امرأة من قبل :

ــ كنت أحتاجك !..

أضافت وهى تمسح جسدى براحة يدها :

ــ عمك فلان ــ زوجها ــ مات وأنا فى عز الشباب .. لهذا كنت أحتضنك !..

واستطردت بلهجة ملونة :

ــ وأحتاجك !..

لم أكن أعرف معنى العلاقة الجنسية ، ولا أعى تفصيلاتها . ولم أكن ــ كما صارحتك ــ أدرك الفارق بين جسد الرجل وجسد المرأة . وتخلصاً من المأزق الذى وجدتنى فيه ، قلت لأم عايدة وهى تنزع سروالى :

ــ انصرفى !..

وتصرفت !..

وكانت تجربة قاسية . شملنى قرف وتقزز ، وظللت ــ لأيام ــ أتذكر ماحدث ، فيلفنى شعور بالغثيان .

***

حين نظرت إلى ، ونظرت إليها ، لم أكن أتصور أنها ستشارك فى تجربتى التالية ، الفاشلة . كانت تشغلنى تجربـــة أم عايدة . تصورت أن ماحـــدث لن يتكرر مع امرأة أخرى . بدا لى الجنس مقززاً ، وكرهته .. لكن الفتاة أبطأت فى خطواتها عند نهاية الشارع الموازى لترعة المحمودية ، ثم توقفت . تشككت إن كانت تخصّنى بنظراتها . فلما تلفّت فى الشارع الهادئ ــ زمان ! ــ وعادت عيناى إليها بنظرة متسائلة ، كانت شفتاها قد اتسعتا بابتسامة مشجعة . وواتتنى جرأة ليست فى طبعى ، وبالذات فى علاقتى بالجنس الآخر . كنت أفضّل هدوء الشارع للمذاكرة ، فطويت الكتـــاب ، واتجهت نحوها . صحبتها ــ فى المساء ــ إلى بيتنا بشارع اسماعيل صبرى . انتظرت فى محطة الترام أمام قهوة فاروق ، حتى أضأت نور الحجـــــرة المطلة على الكورنيش . واربت باب الشقة ، فدخلت البيت ، والشقة ، دون أن يسألها البواب ولا فضول الجيران : إلى أين ؟..

ضايقنى هدوءها وتحديقها الصامت فى أرجاء الشقة . أمسكت أصابعى ــ متوترة ــ بساعدها ، تقودها إلى غرفة نومى . هزت لفة ورقية بيدها ، وقالت :

ــ قميص نوم ..

واستطردت فى هدوء لم تهمله :

ــ سأظل معك إلى الصباح ، فلا تتعجل !..

جلسنا على طرف السرير ، فقبّلتها . كانت أم عايدة قد نزعت ثيابها وثيابى تماماً ، فتصورت أن هذا هو مايجب أن نفعله ..

هتفت فى استنكار :

ــ عيب كده !..

غالبت الدهشة :

ــ ألن ..

قاطعتنى :

ــ بعدين .. مش معقول كده ..

قبّلتها ثانية ، فلم تمانع . ارتميت بجسدى العارى عليها . فى بالى ماتعلمته من أم عايدة ، لكنها انتترت غاضبة :

ــ قلت لك بعدين .. انت مش بتفهم ؟!..

بادلتها الغضب :

ــ أمّال جايه ليه ؟..

صرخت :

ــ أنا بنى آدمة يا أخى ..

قلت فى تخاذل :

ــ يعنى أعمل إيه ؟..

ــ اهدا الأول ..

قبّلتها للمرة الثالثة . ونسيت تحذيرها لى ، ارتميت عليها . تمصلت من قبضتى ، وصفعتنى . أذهلتنى الكراهية فى عينيها : لماذا استدعتنى بنظراتها فى البداية ؟ ولماذا أتت بقميص النوم ؟!..

قبل أن أفكر فى رد الفعل ، مايجب أن أفعله ، كانت قد فتحت باب الشقة ، وجرت .

***

وذات مساء ، وفى ظروف لا أتذكرها جيداً ، أتاحت لى ابنة فاكهى بميدان الخمس فوانيس ، أن أداعب جسدها . ولأنى كنت قد تعلمت أن الفتاة ــ أية فتاة ــ يجب أن تظل عذراء ، فقد اكتفيت بالملامسة ، لكن الفتاة فاجأتنى بالعلاقة

الكاملة . وبحثت عن الدم الذى يصاحب ـــ كما سمعت ـــ أول العلاقة ، فلم أجد شيئاً ، وكانت صديقتى تبتسم ..

وفهمت أنها لم تكن عذراء !..

***

اجتذبتنى ـــ فيما بعد ـــ علاقات طارئة . أومأت ، فاندفعت نحوها بلا تردد ، وإن واصل الخيال علاقتى بالمرأة حين ظلت ـــ المرأة ـــ فى مجال التصور . عود على بدء . أُسلم نفسى للعادة السـرية ، أقيم علاقات لا حصـر لها مع بنات الجيران (أذكرك بفاطمة) وصور الجميلات فى الصحف ، وربما " ألّفت " فتاة لا وجود لها فى الواقع (أصارحك بأنى أفدت من ذلك فى روايتى " النظر إلى أسفل " . تعرفت إلى " العقدة " أو " التيمة " فى تجربة شخصية ، أثناء زيارة عمل فى ١٩٧٥ للعاصمة الموريتانية نواكشوط ، كتبت ـــ بتأثيرها ـــ قصتى القصيرة " الأكسر " ، ثم ضفّرتها فى " النظر إلى أسفل " برؤى وخبرات وذكريات ، ينتسب بعضها إلى تلك المرحلة الباكرة فى حياتى) .

ومع أنى كنت أمارس العادة السرية فى دور السينما ، للمشاهد التى تثيرنى ، وفى حدائق رأس التين ، وعلى

الكورنيش ، يسعفنى الخيـــال بما أفتقـــده ، فإنى أعجب ــ الآن ــ للجنون الذى كان يدفعنى إلى توهم الحياة منفرداً !. واجهت ــ بالفعل ــ مآزق صعبة ، واستمعت إلى ملاحظات وشتائم ، وزغدنى أحدهم ــ للعيب الذى رآه ــ وإن لم تشتط ردود الأفعال يوماً ، فتصبح ايذاء بدنياً !.

ولما وصلت إلى القاهرة للبحث عن عمل فى احدى الصحف ، أقمت فى بنسيون بشارع فهمى المتفرع من ميـــدان الفلكى . وكانت مشرفة البنسيون امرأة ، تأتى لنا بالنساء من ملاهى وسط البلد ، ومن كلوت بك . ثم أقمت مع احداهن فى شقة مستقلة بشارع نوبار . وتعرفت ــ أثناء ذلك كله ــ إلى ماكان مجهولاً فى الغابة الوحشية .

***

اللى مالوش كبير يشترى له كبير ، مثل مصرى أتذكره الآن ، وأتفهم دلالاته . لم أكن مسئولاً حتى عن ذاتى . لا أحد يناقشنى ، أو يبذل لى النصيحة . ما أريده أفعله ، لا يهمنى إن كان خطأ أو صواباً . حتى النتائج لا تشغلنى ، ولا أتدبرهـــا . وكنت أحلم ــ أحياناً ــ بالصدر الذى أرتمى عليه ، وأبكى ، أو الصيحة التى تزجرنى لتصرف خاطئ

أكون قد ارتكبته . بدا لى الجنس ــ بعد أن تعرفت إلى ملامحه جيــداً ــ مثل الماء المثقلج ، لا أرتوى منه أبداً ، لولا عاملان حالا دون أن أفقد نفسى بصورة كاملة :

العامل الأول هو نشأتى الدينية ، يزلزلنى ــ عقب كل علاقة ــ ماهــو أقسى من تأنيب الضمير . أتذكر أيام المذاكرة فى أبى العباس ، وعظات الشيخ عبد الحفيظ فى على تمراز ، والأذان ، وصلاة العيدين ، وتسابيح الفجر ، والموالد ، وحلقات الذكر ، وقسوة أمى ، ونصائح أبى ، وسنى أدائى للصوم فى كل الأيام ، وصداقتى لشبان يعرفون للدين قدره . وكنت أبتعد عن العلاقة تماماً ، وأتمتم بكلمات الاستغفار إذا تناهى صوت المؤذن من المسجد القريب ، فاجأنى ــ وفتاتى ــ فى الموقع الذى اخترنــاه : ردهــة صغيرة أمام باب السطح أعلى بيتها . أقف على شاطئ الأنفوشى ، تطمئن إلى خلو البيت ، فتبلغنى برفع الغسيل من مناشره ، وتلقى بنا المتعة فى جزر لا صلة لها بالزمــان ولا المكان ، حتى أنهض مفزوعاً على صوت الأذان من الجامع القريب ، ثم أعود ــ بعد انتهائه ــ إلى عناق فتاتى ..!

ربما تؤذيك صراحتى . وقد تغيب علىّ ماكنت أفعله .. لكن ذلك ماحدث بالفعل .

أما العامل الثانى فهو القراءة . كنت أقرأ كثيراً ، مالم أبعه من كتب أبى ، ومايعيره لى الأصدقاء ، أو أستعيره من مكتبة النن الأب بشارع الموازينى ، والنن الإبن بالقرب من بيتنا ، ومكتبة عم حجازى أول شارع الميدان .

ومع أن القراءة لم تصرفنى عن ممارسة العادة السرية ، بل كنت ألجأ إليها ــ أحياناً ــ بعد قراءتى لرواية مثيرة ، فإنها لم تجعل الجنس فى حياتى بحراً وحيداً أسلم نفسى لأمواجه ، فأغرق !..

.. وفررت من ذلك كله ، عندما تزوجت قبل أن أبلغ الثالثة والعشرين .

عالم من القراءة

لاشك أن الحواديت التى كنا ــ أخوتى وأنا ــ نستمع إليها من أمى ، وجدى لأمى ، وبعض سيدات العائلة ، سبقت القراءة فى حياتى . حواديت مجهولة المؤلف ، توارث رواياتها أجيال : الزوج الذى " يحمل " فى سمانة ساقــه بدلاً من الزوجة المريضة .. ياست يا ستنا ياللى قصـــرك أعلى من قصرنا .. ماتدنيش عنقود عنب .. للعليل اللى عندنا ؟.. يابير يابير .. اديّها صراصير كتير .. طبّل طار .. طبّل طار .. خدها ابن السلطان وطار .. إلخ .. بالإضافة إلى الحواديت المستمدة من ألف ليلة وليلة ، وإن داخلها ــ من الرواة ــ حذف واضافة ، بما يسهل علينا ــ نحن الصغار ــ فهمه .

وكانت مكتبة أبى بداية تعرفى إلى عالم القراءة العامة . لا أذكر متى تنبهت إلى كومات الصحف والكتب التى امتلأ بها ذلك الدولاب ــ المغلق دائماً ــ فى غرفة نومنا ، نتابع أبى ، يفتحه ــ أحياناً ــ ويغلقه ، بعد أن يقلّب ــ لفترة ــ فيعثر على الكتاب الذى يطلبه ، أو يعيد كتاباً أتم قراءته ، أو فيما يتطلب عمله أن يقرأه . كان أبى مترجماً ، يترجم من

العربية إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والتركية والإيطالية ، ويترجم من هذه اللغات إلى العربية . وكانت ملاحظتى أنه لم يكن يأخـــذ أو يعيد سوى قواميس اللغة . أما الكتب الأخرى التى كانت تضيق بها أرفف المكتبة ، فقد علمت من ملاحظات الهوامش التى كان يحرص على تدوينها ، انه قد سبق له قراءتها ..

كانت أيام طه حسين بداية ما أذكره من قراءاتى فى الكتب الأدبية . قبلها قرأت العبرات والنظرات وماجدولين وغيرها من كتب المنفلوطى ، وبعض الروايات المترجمة ، من بينها ــ ربما ــ الفرسان الثلاثة لألكسندر دوماس ، فضلاً عن مجلات ثقافية ودينية وقصص للأطفال كتبها سعيد العريان وفريد أبو حديد وكامل كيلانى ، أُلّفت ، أو تم تبسيطها ، من أعمال روائيـــة لأدباء معروفين . كانت قراءتى للأيام مصادفة . أراد شقيقى الأكبر أن يستأجر دراجة . المقابل ثلاثة قروش ، بينما لم يكن معه سوى قرشين فقط . وفى بساطة ، سحب كتاباً من دولاب أبى ، ودفعه إلىّ قائلاً : تشتريه بقرش ؟..

كان ذلك الكتاب هو الأيام .

لم أستطع فهم شئ فى القراءة الأولى ، إنما هى انطباعات عن صبى صغير وترعة وسور وعفاريت ومردة وغيلان واحتفالات بالمولد النبوى ، ورسوم للفنان بيكار . ثم أعدت ــ بعد أقل من شهر ــ قراءة " الأيام " للمرة الثانية . واستطعت أن ألم ببعض التفصيلات ، وتبدت أمامى صورة الحياة ــ وإن غلب عليها الغموض ــ فى تلك القرية من قرى الصعيد . وتعاطفت مع " صاحبنا " الذى عانى العمى ، والوحدة ، وايذاء الفقيه والعريف . وتأثرت لموقفه أمام أصحاب أبيه وهو يتلعثم فى تلاوة سور القرآن الكريم . وفرحت لما أفلح فى القراءة بلغة سليمــة ، وأعصاب هادئة ، وإن لم يفارقنى الإشفاق على المأساة التى كانت تنبض بها سطور الكتاب ، والتى كان صبينا الضرير بطلاً لها . وأذكر أنى لم أفلــح ــ حتى فى القراءة الثالثة ــ فى فهم كلمات الختام التى وجهها الراوى إلى طفلته عن " ذلك الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وارتياح . أنت مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدؤ الليل وبهجة النهار ؟. لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على

أبيك ، فبدّله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفواً " . ثم عرفت ــ فيما بعد ــ أن ذلك الملك الحارس هو زوجته . وكان اكتشافى لما أراد الراوى أن يقول ، ثم اعجابى المتزايد بتلك الكلمات التى تعد ــ فى تقديرى ــ تعبيراً متفوقاً عن الخصائص الجمالية فى أسلوب طه حسين .. كان ذلك هو الدافع لأن تكون محاولتى المطبوعة الأولى باسم " الملاك " ، وأن تكون متـــأثرة ــ إلى حد كبير ــ بأسلوب طه حسين ، كما تبدّى فى ختام " الأيام " .

***

أحببت القراءة ــ والأدب بالتالى ــ من قراءاتى المنوعة فى مكتبة أبى . عزفت عن مشاركة الأولاد ألعابهم فى الشارع الخلفى لبيتنا : كرة الشراب وأولها اسكندرانى والنحل والبلى وصلّح وغيرها . حتى السباحة التى يقبل على تعلمها ــ ربما غريزياً ــ أبناء الإسكندرية ، لم أحاول تعلمها . تحدد عالمى فى القراءة . أحببتها ، وأقبلت عليها . وحتى بعد أن جاوزت سنى الصبا ، لم أحاول فهم الطاولة والدومينو والكوتشينة ، ولم أحاول ــ بالتالى ــ لعبها .

وعندما حاول صديقاى عبد الفتاح الجمل وكمال الجويلى تعليمى ايّاها ، عجز فهمى القاصر عن ادراكها . وأذكر أنى تصورت ــ يوما ــ اجادتى للعبة الكوتشينة . وماكدت أبدأ فى توزيع الورق ، حتى انتتر الجالس أمامى ، وقال : قم .. طريقة امساكك بالورق خطأ !.. وطالت بى الجلسات فى قهوة الكورسال . يحاول الجمل والجويلى والراحل عبد الحميد عبد النبى والكاتب المسرحى على سالم ، أن يتيحوا لى تفهّم تلك اللعبة الصعبة ، المعقدة : الطاولة . ثم هزمنا اليأس !.

***

أذكر من قراءاتى الأولى : كتابات فائق الجوهرى فى الثقافة الجنسية ، ومجلة " الإسلام " التى كان يصدرها أمين عبد الرحمن . قرأت فيها قصة الإسراء والمعراج ، وتمنيت أن أعيد ــ ذات يوم ــ كتابتها ، ومسرحيــة ستيفان زفايج " ارميا " ، وهى تتناول تصفية نبوخذ نصر البابلى مملكة يهوذا فى العقد الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ، ترجمها أستاذنا مفيد الشوباشى بتكليف من أصحاب جريدة " البصير " السكندرية . وعرفت ــ متأخراً ــ أن المسرحية

كانت جزءاً من مخطط يستهدف تهيئة الأذهان لقبول فكرة الدولة الصهيونية . وحين ناقشت الشوباشى ـــ فيما بعد ـــ فى ظروف ترجمته للمسرحية ، ابتدرنى مقاطعاً : كانت الترجمة مقلباً لم أفطن إليه .. لا أحب أن أتذكره ولا أحب أن تذكّرنى به !..

وقرأت فى سن ، لعلها أصغر من أن أعى فيها كل ما أقرأه جيداً : تاريخ الجبرتى والسيوطى وابن اياس ، وفتاوى ابن تيمية ، ومقدمة ابن خلدون ، وأدب الماوردى فى الدين والدنيا ، وما أتيح لى من فقه الشافعى وتفسير القرطبى وأدب الجاحظ وابن قتيبة وفلسفة ابن رشد وتصوف الغزالى ووفيات ابن خلكان ، وقرأت السير الشعبية : الزير سالم والهلاليـــة وعنترة وسيف بن ذى يزن والظاهر بيبرس وذات الهمة ، وقرأت ماصدر من أعداد خاصة فى مناسبة مرور ألف عام على ميلاد أبى الطيب المتنبى ، لمجلات الهلال ودار العلوم وغيـــرها ، وبعض الكتب التى تناولت سيرته وشعره . بدا لى شخصية مثيرة ، أقرب إلى تراجيديات المسرح الإغريقى . وأيقنت أنه قد ملأ الدنيا بحق

، وشغل الناس فعلاً . وشغلنى المتنبى لأعوام طويلة ، تالية ، حتى بعد أن أصبحت مكتبة أبى ذكرى بعيدة ..

الإثارة فى عبقرية المتنبى الشعرية ، توازيها ــ أو ربما تبدو أشد اثارة ــ رحلة طموحه الغريبة التى انتهت بمأساة . جمع بين القوة الإنسانية والضعف الإنسانى . خاض المعارك إلى جانب سيف الدولة . ولما أحس بما يقلق ، هم بالفرار . ومن قصائده :

وإذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تموت جبانــــــــاً

لكن سعيه وراء الولاية والمكانة الأعز ، دفعه إلى مواقف صغيرة ، حتى وصفه أحد دارسيه بأنه " أعظم شعراء العرب فكراً وأملاً ، وإن كان من أدناهم نفساً وأشدهم جشعاً (محمد جلال ــ المتنبى ــ مجلتى ــ سبتمبر ١٩٣٥) . كان المديح بعداً رئيساً فى قصائد الشعراء وقتذاك ، فبدّل المتنبى حتى فى هذا البعد ، عندما قصر مديحه على الملوك . وحين دعاه الوزير الصاحب بن عباد لزيارة أصفهان ، وكتب إليه يرغّبه فى الزيارة ، ويبذل له الوعود ، إلى حد مشاطرته ــ المتنبى ــ نصف أموال الوزير ، إن هو مدحه

بقصيدة واحدة . قال المتنبى : " بلغنى أن غليماً معطاء ، يدعى الصاحب ، يريد أن أزوره وأمدحه ، ولا سبيل إلى ذلك ، فأنا أترفع عن مدح غير الملوك " . وعانى سيف الدولة غرور المتنبى وغطرسته ، حتى أنه ــ المتنبى ــ اشترط على سيف الدولة ألاّ يقبّل الأرض بين يديه ، وأن ينشده الشعر وهو جالس . بل إن سيف الدولة كان يقبل رأس شاعره ليصالحه إذا أغضبه . ولكن أبا الطيب هو الذى تحمل إيذاء أعوان سيف الدولة ، وإيذاء سيف الدولة نفسه ، له ..

وإذا كانت حياة المتنبى ــ فى ظاهرها ــ حياة مجد وفروسية ، فإنها ــ فى الحقيقة ــ كانت حياة مضطربة ، تزداد تعقيداتها بتعاظم طموحاته ، وانتقاله من بلد إلى آخر ، حتى لقى مصرعه فى دير العاقول ..

قيمة المتنبى الأولى هى تجديده المؤكد فى مسار الشعر العربى . مع ذلك ، فإن العبيدى فى " الإبانة عن سـرقات المتنبى " يجد فى المتنبى لصاً ، لا أكثـر . يقول : " لقد تأملت أشعاره كلها ، فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعبّر بها أدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ،

ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلــوخة " . وقد عبّر القاضى الجرجانى عن تباين الآراء فى شخصية المتنبى بقوله إن " أهل الأدب مابين مطنب فى تقريظ المتنبى ، منقطع إليه بجملته ، منحط فى هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه إذا ذُكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكــرر ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ، فإن عثر على بيت مختل النظام ، أو نبّه على لفظ ناقص عن التمام ، التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ، مايزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر ، وعائب يروم إزالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضله ويحاول حطّه عن منزلة بوأه إيّاها أدبه ، فهو يجتهد فى اخفاء فضائله ، واظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، واذاعة غفلاته . وكلا الفريقين إماّ ظالم له أو للأديب فيه . وكما أن الانتصار جانب من العدل لايسدّه الاعتذار ، فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار ، ومن لم يفرق بينهما وقف بين الملامة بين تقريظ المقصّر وافراط المفرّط " ..

وأذكر أن الكتابة عن حياة المتنبى تخلّقت فى داخلى كالأمنية ، حتى كتبت روايتى " من أوراق أبى الطيب المتنبى " وإن خرجت فى صورة غير التى كنت أتصورها لها ، فهى لم تقتصر على رحلة الشاعر ، وإنّما ناقشت هموماً وشجوناً مصـــرية ، وتَحَوّل المتنبى إلى شاهد على عصره ، يشاهد ، ويسجّل ، ويكتفى من المشاركة بالتأييد القلبى .

ولعلى أستطيع أن أقرر ــ فى ثقة ــ أن قراءاتى لروايات جرجى زيدان التى تناول فيها التاريخ الإسلامى ، كانت هى المدخل للأعمال التى حاولت فيها استلهام ــ أو توظيف ــ التاريخ . استفزتنى ، وتمنيت أن أستلهم التاريخ فى أعمال مماثلة . الأثر نفسه ــ تقريباً ــ أحدثته فى نفسى روايات على الجـــارم " غادة رشيد " و " فارس بنى حمدان " و " هاتف من الأندلس " و " الشاعر الطموح " وغيرها . وإذا كان كتاب الجارم " الشاعر الطموح " قد سقط من بين مراجعى فى رواية " من أوراق أبى الطيب المتنبى " فإن ذلك كان من قبيل النسيان ، لا التناسى !..

❋❋❋

كان العقاد فى مقدمة من استهوتنى كتاباتهم . قرأت له " فى بيتى " ، فكان المدخل لقراءة كل ماستطعت قراءته وفهمـــه من مؤلفاته . بدا لى العقاد صعباً فى البداية . حاولت الإفادة من المعلومات التى تشتمل عليها كتاباته ، ثم حاولت أن أجاوز التلقى السلبى إلى المناقشة والفهم . وتصورت العقاد ــ فى حوارى الصامت مع أعماله ــ عملاق الجسد والفكر . ساعد على ذلك صوره التى كانت تنشرها الصحف ، تسمها جدّية واضحة . ساعد على ذلك أيضاً لقب " الأستاذ " الذى كان يعنيه ، حتى لو لم يسبق اسمه ، بالإضافة ــ طبعاً ــ إلى تلك الأستاذية الواضحة فى كل ماكتب . كان يحسن القراءة والاستيعاب والتوصل إلى وجهة نظر محددة ، بحيث لم تشغله الانتقـــادات التى عابت على كتبه خلوّها ــ إلاّ فيما ندر ــ من المصادر والمراجع ، يذكّرنى بألدوس هكسلى ، ميزته الأولى تلك الملكة المذهلة ، بهضم المعارف على تنوّعها ، واعادة تقديمها بأسلوب ومنهج مميزين . وتمنيت أن ألتقى بالعقاد ، أقترب منه ، أصافحه ، أتعرف إلى ملامحه وانفعالاته ، يدور بيننا حوار ..

ويوماً ، كنت أعبر الطريق فى شارع صفية زغلول ، عندما اتجهت عيناى إلى الوجه الذى طالما تمنيت أن ألتقى بصاحبه ..

كان العقاد ــ بجسده العملاق وملامحه الصارمة ــ يجلس فى المقعد الخلفى لسيارة عتيقة الطراز . تهيبت ، وترددت ، وتلعثمت ــ لك أن تدرك مشاعرى ! ــ قبل أن أتقدم من نافذة السيارة ، وأهمس : مساء الخير !.

رد الرجل التحية بمثلها . وسألت وأجاب . وكان نبض الحوار ماكتبه فى ميزانه عن فلسفة الثورة .

بدا لى الرجل مغايراً لكل ما قرأته عنه ، وللصورة التى حاول ذهنى القاصر أن يجسّدها . كان أبوياً وودوداً وطيباً . وتعانق ــ فيما بعد ــ حلى لشخصه وكتاباته فى آن معاً . وعندما تهيأت للسفر إلى القاهرة ، كان العقاد فى مقدمة من أتطلع لقائهم ، أتعلم على أيديهم ، أناقشهم ، أفيد من توجيهاتهم . والتقيت فى القاهرة بغالبية الذين تطلعت للقائهم ، فيما عدا العقاد . ترددت ــ بالخجل الكامن فى أعماقى من المشاركة فى المجتمعات ــ عن زيارته فى ندوته

الأدبية . ولأن الغد له غد ، فقد تواصلت الأيام ، حتى رحل العقاد عن عالمنا فى الثالث عشر من مارس ١٩٦٤ .

***

كانت مكتبة أبى ــ برغم ضخامتها وتنوعها ــ خالية من كتاب لسلامة موسى . لم أحاول ــ بعد أن تعرفت إلى كتابات الرائد العظيم ، أن أسأل أبى : هل قرأ سلامة موسى ؟.. ولا أن أناقشه ــ بالتالى ــ فى كتاباته . وكنت أعزف عن اللعب ــ أحياناً ــ فأجلس إلى شاكر ، الصنايعى بدكان الأسطى عبد الهادى الترزى أسفل بيتنا . أناقشه فى قراءاته ، ويناقشنى فى قراءاتى ، وتمتد المناقشات ، تنحسر الموضوعية أمام الرغبة فى اظهار الثقافة ، وتأكيد الذات ، وإن اعترفت ــ الآن ــ أن شاكر كان مثلاً لهؤلاء الذين يجاوزون ــ بالتثقيف الذاتى ــ كل المراحل الأكاديميـــة فى التعليم ، فهو زبون دائم لحمامة النن بائع الصحف بشارع اسماعيل صبرى ، ولوالده ، بائع الصحف أيضاً ــ والكتب القديمة ــ بأول شارع الموازينى ، ويعيره عم حجازى صاحب المكتبة الحجازية الشهيرة على ناصية شارعى الميدان واسماعيل صبرى فى أبوة غريبة . كل مايرغب فى

قراءته من كتب جديدة ، أو قديمة ، فلا يحصل منه على مقابل ما . بل إنه يوبّخـــه إذا طال احتفاظه بالكتب ، فهو قد انشغل عن القراءة إذن ، وإذا أعـــادها بلا قراءة ، فهل اكتملت ثقافته حتى يفرض الاختيار فيما ينبغى ــ أو لا ينبغى ــ قراءته ؟!..

لم يكن سلامة موسى من الكتّاب الذين قرأت لهم ، وإن ظللت شغوفاً بالتعرف إليه من الكتابات التى ناقشت آراءه ، مؤيدة ، أو متحفظة ، أو رافضة ، ومن أحاديث شاكر المتحمسة عن مقدمة السوبرمان والاشتراكية والتصنيع والعلم والتقدم والتحديث ونبذ الخرافة . وطالبته ــ لكى تتساوى كفتا المناقشة ــ أن يعيرنى مؤلفاً لكاتبه الأثير ..

وقرأت " تربية سلامة موسى " . شدتنى البساطة التى تناول بها الرجل أخطر القضايا ، وإن أشفقت من حرصه على تأكيد انتمائه الطائفى ، بحيث تناثرت كلمة " القبطية " ومشتقاتها فى صفحات الكتاب بما يصل إلى المبالغة . عمّق ذلك الإحساس ماكنت قرأته فى كتاب أستاذنا الكبير الراحل الدكتور محمد محمد حسين " فى الأدب المصرى الحديث " والذى أدان فيه الحركات الطائفية والشعوبية ، والمؤامرات

التى تستهدف تشويه اسلامية المجتمع المصرى ، فضلاً عن أحاديث صديقى فتحى الإبيارى التى كانت تضع سلامة موسى فى موضع الإدانة دائماً ، وتعيب عليه دوره المشبوه فى حياتنا الفكرية ..

وحتى الآن ، فإن ملاحظتى السلبية فى كتابات سلامة موسى ، هى حساسيته الطائفية المفرطة ، وملاحظات أخرى تتصل برفض التراث العربى ، والحضارة العربية ، والتركيز على المدنية الأوروبية فى اطلاقها . وفيما عدا ذلك ، فإنى أدين للأبعاد الإيجابية فى كتابات سلامة موسى بالكثير من أفكارى وآرائى وادراكى للأمور ..

***

كانت مكتبة البلدية الملاصقة لمدرستى ــ الإسكندرية الثانوية ــ أولى المكتبات العامة التى ترددت عليها. أقضى فترات الفسح ، أو الحصص التى بلا مدرسين ، فى قاعتها الفسيحة المطلة على شارع الرصافة ، أقلب فى البطاقات ، فأختار الكتاب الذى يشدّنى اسمه ، أو اسم صاحبه . لا أطلب كتاباً بالذات ، ولا كاتباً بالتحديد ، فالقراءة مطلبى اطلاقاً ، أقرأ وأقرأ وأقرأ ، فى كل شئ ، ولكل الأسماء . عشرات

المجلات والكتب ، وآلاف الصفحات ، وملايين الكلمات والأسطر . تبهرنى فكرة ، فأعتنقها ، ثم تطويها قراءة اليوم التالى . فلما كبرت ، صرت أقبل على القراءة وأنا أتمثل قــول فرنسيس بيكون : " إقرأ لا لتعارض ولا لأتفنّد ، إقرأ لا لتصدّق ، ولا لتأخذ الأمر قضية مسلّمة ، ولكن لكى تفكر وتزن الأمور " .

أحاول الآن أن أتذكر كتاباً فرض نفسه ـــ فى ذاكرتى ـــ على عشرات الكتب التى أتيح لى قراءتها ـــ آنذاك ـــ فلا أوفق ، وإن كنت أذكر جيداً تلك الدقائق الخصبة ، والمثمرة ، التى تسبق تسلّمى للكتاب الذى طلبته . أتصفح الدوريات المصفوفة على حوامل خشبية فى قاعة القراءة : الهلال والرسالة والثقافة والمختار وغيرها من زاد المعرفة . الموضوع الذى يستهوينى أقرأه ، فلا أتركـــه حتى أتمه . وربما أرجأت قراءة الكتاب الذى طلبته إلى اليوم التالى ، لاستكمال قراءة مواد احدى المجلات . فى مقدمة كتابى " مصر فى قصص كتابها المعاصرين " رويت لك حيرتى بين القراءات . تهزّنى أفكـــار آخر كتاب قرأته ، ولا أعانق فكرة واحدة أبداً . تعرّفت إلى جزر مجهولة ، وأسماء لم أكن

طالعتها من قبل . ووجدت فى المجـــلات الثقافية تنوعاً يرجوه ذلك الذى ينشد القراءة لذاتها ، وأحببت الفلسفة والتاريخ والتراجــم والسير وقصائد الشعراء . أما القصة ، فقد أحببتها . الأدق أنى كنت أحببتها مطلقاً ، صارت عالمى الحقيقى ــ قارئاً وكاتبـــاً ــ منذ بهرتنى أيام طه حسين ، فحاولت تقليدها فى كتيّب مطبوع ، أشبه بمرثية لأمى التى غيّبها الموت قبل أن أبلغ العاشرة . ضمّنته جملاً للمنفلوطى وتيمور والحكيم وعبد الحليم عبد الله والسباعى وغراب وآخرين ــ لم أكن تعرفت إلى نجيب محفوظ بعد ــ لكن بصمات " الأيام " كانت واضحة فى التناول ، وفى الجمل المطولة التى نقلتها ــ ببساطة ــ من كتاب طه حسين ..

وتعرفت إلى يوسف كرم ــ للمرة الأولى ــ فى مكتبة البلدية . قرأت له سلسلة كتبه فى تاريخ الفلسفة الحديثة . شدتنى بساطته وسهولة لغته . استطعت فهم كلماته بأيسر من فهمى للمواد الدراسية . ومع تنوع قراءاتى فى الفلسفة ، فإنى لم أجد مثل هذا التعريف المبسط لماهية الفلسفة ودورها : " الفلسفة ليست مقصورة على تقرير الواقع ودفع الشبهات عنه ، وإنما غرضهاالأكبر تفسير الواقع بالرجوع إلى مبادئه ،

أى وضع نظرية تستتبعه كنتيجة لازمة ، وتجـــلوه من كل جفاء " . أسهم يوسف كـــرم فى تعرّفى إلى تاريخ الفلسفة . المؤكد أنى لم أكن أعرف تطور الفكر الفلسفى فى العالم ، لو لم أقرأ كتبه عن الفلسفة اليونانية ، والفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط ، والفلسفة الحديثة ، إلخ .. بل ان تناوله للفلسفة الوجودية أعفانى من التناول الخاطئ الذى كتبه ـــ فيما بعد ـــ أنيس منصور . احترامى للفلسفة الوجوديـــة يجد بدايته فى كتابات يوسف كرم . الوجودية كمذهب فلسفى ، العلمية والموضوعية والنأى عن الإثارة التى اتسمت بها كتابات تالية . ولم أكن أعرف عن حياة الرجل ولا ظروفـــه الخاصة أى شئ ، حتى قرأت فى الصحف عن انهيار المنزل الذى كان يقيم فيه بطنطا ، وضياع ترجمات لمؤلفات فلاسفة الإغريق ، وأصول كتاب كان قد انتهى من تأليفه عن الأخلاق . وشغلنى ـــ من يومها ـــ الجانب الشخصى فى يوسف كرم ، أسأل وأتابع وأقرأ ، حتى لحقته الوفاة يوم الخميس ٢٨ مايو ١٩٥٩ ، وكان فى الرابعة والستين من عمره .

* * *

ومع أن الاستعارة الخارجية فى المكتبة الأمريكية بشارع فؤاد ــ طريق جمال عبد الناصر فيما بعد ــ قد أضافت الكثير إلى تكوينى الثقافى ، فإن موسوعة ول ديورانت " قصة الحضارة " كانت هى الكتاب الأهم الذى ترك ــ فى ذهنى ــ تأثيرات مؤكدة . بل لعل قراءتى لتلك الموسوعة كانت هى المدخل الفعلى لاهتمامى بدراسة التاريخ ، كقارئ فى البداية . ثم تناولى لأحداثه وتحليلاته بعد اشتغالى بالكتابة ، سواء فى صورة توظيف أحداث التاريخ فى الأعمال الأدبية ، أو فى صورة دراسات كما فى " مصر فى قصص كتابها المعاصرين " و " مصر من يريدها بســوء " . الكل يكتب ويبدع ، فلا يخلد إلاّ الأقل من المؤلفات المهمة . ولعلى لا أجاوز الحقيقة حين أضع موسوعة ديورانت فى مقدمة أهم مائة كتاب فى السنوات المائة الأخيــرة . بل إنى أتفهم الآن ــ بعد مرور مايزيد عن ثلاثين عاما على قراءة ماكان قد تم ترجمته من موسوعة ديورانت ، قول توينبى إنه " مامن عقل واحد ، أو حياة واحدة ، تستطيع أن تقوم بهذه المهمة على الوجه الأكمل " . توضّح لى فى " قصة الحضارة " مسار الحياة الإنسانية

منذ نشأتها الأولى : الدين والحكم والسياسة والزراعة والاقتصاد والعلم والثقافة والفن إلخ .. بانوراما متكاملة للجنس البشرى منذ فجر التاريخ . وأتصور أن تأثير موسوعة ديورانت كان دافعاً لأن أعلن فى غلاف محاولتى الباكرة " ظلال الغروب " انى أُعِدّ لعمل كبير ، اسمه ــ فيما أذكر ــ " الشعلة المقدسة " عن تاريخ مصر ، منذ شق النيل مجراه فى أرض مصر ، وتخلقت الحياة على ضفّتيه . وبالطبع ، فإن شعلتى المقدسة لم تجاوز حد الأمنية !

وقد أحببت أبطال الإلياذة والأوديسا لهوميروس . انهم يحيون فى البطولة ، ويموتون فيها . رجال حقيقيون كاملون ، يعون دورهم فى الحياة ومايجب أن يفعلوه ، همهم الإفادة من كل ماوهبتهم الآلهة من قدرات وامكانات ، ليثبتوا لأنفسهم أنهم على مستوى المسئولية التى يواجهونها . وطبيعى أن هؤلاء الأبطال ليسوا وقفاً على مجتمع بذاته ، ولا زمان بالتحديــد . ولعلى أذكرك بشخصيتى الأستاذ وبكر رضوان فى " الأسوار " وشخصية على عبد الحسين فى " إمام آخر الزمان " .

* * *

حين كنت أعد أشهر الصيف ضيفاً على عمتى بحى المنيرة ، كان التردد على المكتبة الفرعية لدار الكتب القريبة من البيت ، فى مقدمة ما أحرص عليه . تعرفت فيها ــ على مدى أعوام ــ إلى آدم متز وراسل وكامى وفوكنــر وهمنجواى ودى بوفوار ولاسكى وفيتزجرالد وبروست وفرويد وستاندال وفلوبير وبلزاك وزولا وديكنز وديستويفسكى وتشيكوف وجوركى ونيرودا وناظم حكمت ..

لست أذكر متى تعرفت إلى البير كامى للمرة الأولى ، لكننى قرأت له ، وأحببته ، وأصبحت صديقاً لسيرة حياته وفنه ، قبل أن يفجأه المــوت فى حادثة سيارة . أحببت كامى فى كل شئ ، وإن رفضت عدم إيمانه . البعد الدينى ــ فى داخلى ــ مما لا أستطيع تجاهله ، أو التهوين منه . قرأت له " الطاعون " و " كاليجولا " و " العادلون " و " أسطورة سيزيف " . وتمنيت أن أكتب ــ مثله ــ فى الرواية والمسرحية والدراسة الفلسفية . كما تمنيت ــ عند فوزه بجائزة نوبل ــ أن أحصل على الجائزة العالمية يوماً . أزيد فأصارحك بأنى تركت التصور فى امتداداته إلى حفل تسلم الجائزة . ولأنى من سكان الساحل ، أحب البحــر والشمس

والشاطئ ، فقد أعجبنى للغاية قول كامى : " لقد نشأت فى البحر ، وكان الفقر بالنسبة لى ترفاً جميلاً ، ثم فقدت البحر ، وإذ ذاك بدت لى جميع النعم باهتة تافهة ، والبؤس أمراً لا يحتمل " . وكان اعجابى بكامى يقابله رفض لموقفه المتخاذل ـــ وربما الرجعى ـــ من الثورة الجزائرية . فقد ناهض فكرة استقلال الجزائر " علينا أن نعتبر مطالبة الجزائر بالاستقلال إحدى ظواهر الإمبريالية العربية (!) الجديدة التى تتطلع مصر إلى تزعمها بدافع من الغرور ، والتى يستخدمها ـــ حتى الآن ـــ الاتحاد السوفييتى لفائدة أهدافه الاستراتيجية ضد الغرب " . وكان يستخدم فى حديثه إلى أبناء الجزائر كلمة " أنتم " ، بينما يتحدث عن المستوطنين الفرنسيين بكلمة " نحن " . وبلغ به التبجح ـــ لا أجد تعبيراً أخر ـــ حد القول " إننى مؤمن بالعدالة ، لكننى أدافع عن أمى ـــ فرنسا ـــ قبل العدالة " . وكم أثّرت فى نفسى مقالة للمناضل الجزائرى الأخضر الإبراهيمى ، أكد فيها أن كامى " سيظل ـــ فى نظرنا ـــ كاتباً جليل القدر ، أو بالأحرى صاحب أسلوب فنى ممتاز ، ولكنه سيبقى إلى ذلك غريباً عنا ، لا صلة بيننا وبينه مطلقا " (الهلال ـــ سبتمبر ١٩٧٢)

وإذا كان فوكنر قد أعلن ــ يوماً أنه يستطيع الكتابة عن قريته وهو خارجها دون توقف على الإطلاق ، فلعلى أزعم الأمر نفسه بالنسبة لبحرى : رأس التين والأنفوشى والسيالة وأبى العباس والميناء الشرقية والبوصيــرى والخمس فوانيس وغيرها . أحببت فى فوكنر اخلاصه لبيئته المحدودة ، والمحددة ، وأحببت فى أعماله تحول الحادثة البسيطة ــ وربما التافهة ــ إلى أسطورة ، إلى زخم روائى يحفل بالشخوص والمواقف والأفكار والأحداث . حتى الفتاة التى تجلس فوق الشجرة ، يحيلها الفنان ــ بخياله ورؤاه وقراءاته وخبراته وتجاربه ــ رواية تشغل مئات الصفحات !

أما سكوت فيتزجرالد ، فقد أفدت من أسلوب عمله فى جمع المعلومات التى تعين على التفهم الأوضح للبيئة المكانية والزمانية للعمل الروائى ، خاصة ذلك الذى يستدعى بعض أحداث التاريخ القديم أو المعاصر ..

وأما همنجواى ، فقد لاحظت أن النشر فى أعماله ليس مجرد زخارف هامشية ، لكنه بناء معمارى ينبض بالحيوية والفن . وكان ذلك ما أريده تماماً ، وأتوق إلى تحقيقه . كنت أجد فى نثر عبد الحليم عبد الله ــ على سبيل المثال ــ

تشبيهات وكنايات وجملاً بلاغية ، لكنها لا تسهم فى البناء المعمارى ، لا تشكّل عنصراً فعالاً فى العمل الفنى ، لا ترتبط ، أو تتفاعل ــ عضوياً ــ بالعناصر الأخرى التى يتألف منها . وأهملت ماكان يبهرنى من عبارات عبد الحليم . لم أعد أرجع إليها لأتأمل دلالاتها الجمالية . بدت لى أشبه بالفلاشات التى تنتهى باختفائها ، لاتترك أثراً ، ولا تضيف شيئاً ..

وكان أشد مايمضنى ــ لأعوام ــ أنى كنت أقرأ عن رائعة جيمس جويس " يولسيس " دون أن يتاح لى قراءتها . أحببت الوسيلة الفنية التى اختارها جويس ، وتمنيت ــ من مجرد القراءة عنها ــ أن أكتب مثلها ، أخلط الزمان والمكان والتصور والحدث والخاطرة ، أخلط ذلك كله فى عمل فنى ..

وقد أثارتنى عبارة ديستويفسكى " كلنا خرجنا من معطف جوجول " . وأقبلت على ما أتيح لى قراءته من أعمال جوجول ، فزاد اعجابى بهؤلاء الذين خرجوا من المعطف ، قبل أن أقرأ قصة المعطف نفسها ، أو أعمالاً أخرى لكاتبها . والحق أنى أحببت أدب روسيا القيصرية فى

اطلاقه ، أدب تلك الفترة المثقلة بالتمرد والثورة والإضافة والتطوير ، تخرج القصة القصيرة من معطف جوجول ، فيجيــد تورجنيف التعبير عن طبقة الفلاحين ، ويحتوى تولستوى أمته الروسية فى أدبه ، ويقدم تشيكوف شخصياته البسيطة والمرهقة التى لا تنسى ، ويبشر جوركى ــ بنبرة عالية الرنين ــ ربما أشد مما ينبغى ! ــ بدنيا جديدة ، ويفيد ديستويفسكى علم النفس أضعاف ماأفادته الأعمال الأدبية الأخرى ، منذ المسرح الإغريقى إلى شكسبير ، حتى الأعمال المعاصرة . باختصار ، فقد كان الأدب الروسى هو المدرسة التى تعلم فيها معظم أبناء جيلى ، سواء فى الرواية أو القصة القصيرة أو المسرحية . وحين تجرأت فكتبت ــ لا أدرى كيف ــ مقالاً بعنوان " كيف تكتب قصة قصيرة " فإن المثل المتكامل للقصة القصيرة كان هو قصة " لمن أسرد أحزانى " لتشيكوف ، ذلك الحوذى الذى لا يجد من يسرد عليه أحزانه لوفاة ابنه ، ويلجأ ــ فى النهاية ــ إلى جواده ، يروى له القصة من بداياتها . كانت الطبقة الوسطى ــ والفقيرة أيضاً ، بعكس ما يزعمه النقد ــ هى نبض أعمال تشيكوف ، الحياة العادية البسيطة ، ما ينتمى إلى الواقع

الروسى ، وإن تحقق له البعد الإنسانى المطلق . إلى أية طبقة ينتمى حوذى تشيكوف الأشهر ؟!

وأعترف أنى انبهرت بدعوة برتراند راسل للسلام . وكانت أولى قصصى " ياسلام " تأثراً مباشراً بتلك الدعوة . فلما تحدد الصراع العربى الصهيونى فى مقولة شكسبير الشهيرة " نكون أو لا نكون " بدا السلام تعبيراً عن السذاجة فى مقابل الهجمة التترية العنصرية الضارية التى تسعى لاجتثاث الجنس العربى اطلاقاً . وبعد عشرين سنة من " ياسلام " كتبت العديد من القصص القصيرة ، فضلاً عن روايتى " من أوراق أبى الطيب المتنبى " التى أكدت على " المقاومة " سبيلاً للتخلص من المأزق الذى نحياه ..

ولعلى حين بدأت اعداد كتابى " مصر فى قصص كتابها المعاصرين " كنت متأثراً بقول بابلو نيرودا : " على كل انسان أن يعيش فى وطنه ، أن يصيخ السمع إليه ، أن يضرب بجذوره فى تربته " . وقد دفعنى بابلو نيرودا ــ تحديداً ــ إلى البحث عن ناظم حكمت : " إننا نحسب فى عداد الشعراء عندما نقف بجوار ناظم حكمت " ..

ولعلى أزعم أيضاً ، أنى حاولت الإفادة من آخر ماقالته فرجينيا وولف : " عمل عمل عمل . إنه آخر وصفاتى " ..

تبقى حكاية التأثير الكافكاوى على أدب الستينيات ..

أصارحك أنى لم أتعرف ــ ومعظم جيلى ــ إلى كافكا ، بصورة حقيقية ، بحيث يحدث التأثير والتأثر ، الاّ من خلال ماترجمه الدسوقى فهمى ومصطفى ماهر فى أواسط الستينيات . قبل ذلك ، ربما لم يقدم كافكا إلى العربية سوى طه حسين عندما كتب عــن " المحاكمة " فى الكاتب المصرى . أما القول بأن أعمال كافكا كانت ميسورة التداول ، فإن الإجابة عليه هى أن معظم من وجد النقاد فى أدبهم ذلك التأثير ، لم يكونوا يعرفون لغة ثانية . وأذكر فى مقدمتهم صديقى المتفوق محمد حافظ رجب .

***

كانت مكتبة المنيرة هى المكان الذى التقيت فيه ــ للمرة الأولى ــ بنجيب محفوظ . عرّفنى به أحمد افندى عاكف بطل " خان الخليلى " ..

كنت قد قرأت للمنفلوطى والمازنى وطه حسين والعقاد وتيمور ، ونجوم جيل نجيب محفوظ قبل أن يخسف بهم ضياؤه : السحار والسباعى وغراب وعبد الحليم عبد الله والبدوى وغيرهم . قلت لنفسى : هذا هو الكاتب الذى أريده . وقرأت عبث الأقدار ورادوبيس وكفاح طيبة والقاهـرة الجديدة وزقاق المدق وبداية ونهاية . أحسست بالمسافة الواسعة التى تفصل بين نجيب محفوظ وأدباء الأجيال السابقة ، وأبناء جيله أيضاً . ولكن مجموعة " همس الجنون " لم تحقق ــ فى داخلى ــ التأثير نفسه الذى حققته رواياته . وحتى الآن ، فإنى أتحفظ فى ابداء الإعجاب بغالبية قصص نجيب محفوظ القصيرة ، بينما أجد فى رواياته اضافات مهمة ، لا إلى الرواية العربية وحدها ــ رأى تغيب عنه الحماسة ! ــ ولكن إلى الروايـة العالمية بعامة . روايات نجيب محفوظ هى الأقرب ــ بمواصفات النقـد ــ إلى العالميـة (وقد حصلت ــ بالمناسبة ــ على جائزة الدولة التشجيعية فى النقد الأدبى !) . أما قصصه القصيرة ، فإنها تعانى ــ أحياناً ــ غياب خصائص فن القصة . وقد يغلب عليها الوعظ والمباشرة ، وربما أضيف : والسذاجة أيضا!

***

لم أكن أعلم أن أسلوب القراءة الذى اخترته فى مكتبة المنيرة ، ثم أهملته ، سبقنى إليه " العصامى " فى " الغثيان " لسارتر ، حين وهب حياته لقراءة كتب مكتبة البلدية من الألف إلى الياء . ثقّف البطل السارتـــرى نفسه عن طريق قضاء ساعات طويلة فى القراءة بمكتبة البلدية . وهو ماحاولت أن أفعله ــ قبل أن أقرأ الغثيان ــ فى مكتبة المنيرة . بل انى بدأت تنفيذ مشروعى للقراءة بالطريقة نفسها التى اتبعها روكتـــان ، أقرأ كل الكتب التى تضمها المكتبة وفقاً للتسلسل الأبجدى لأسماء المؤلفين . وقد توقفت عملية التثقيف الذاتى بالنسبة لروكتان عندما طرد من المكتبة بتهمة تحسس ذراع تلميذ صغير . أما أنا ، فقد طردت من مكتبة المنيرة ، وأنهيت ــ بالرغم منى ــ عملية التثقيف الذاتى ، لأن أمين المكتبة ضايقته الأحاديث الهامسة التى كنت أتبادلهـــا وليلى أ . ع (أهديتها أول ما أصدرت من إبداع مطبوع !) . كانت تقيم فى البيت المواجه لبيت عمتى بالمنيرة ، وقررنا أن تنتقل العلاقة من وراء الشرفات إلى مكان آخر ، أخفقنا فى تحديده ، حتى تذكرت مكتبة المنيرة .

لم تكن ليلى ممن يقرأون ، اكتفت بإجادة القراءة والكتابة ، ثم لم تعد تقرأ . وحدثتها عن المكتبة والكتب وجدوى القراءة . والتقيت بليلى عن قرب ، لأول مرة . لم يعد يفصل بيننا شارع ــ هو المواردى ــ وزقاق متفرع منه ــ لا أذكر اسمه الآن ــ ينتهى إلى شرفة ذات مشربية كانت ليلى تطل منها ، بينما كنت أقف لأحادثها داخل شرفة فى شقة عمتى ، أوارب الشيش ، فلا يرانى ــ ماعداها ــ أحد . لاحظ أمين المكتبة أحاديثنا الهامسة ، وأننا لا نقرأ كتابى الاستعارة . اقترب منى ــ بتأدب ــ وقال فى أذنى بصوت هامس :

ــ المكتبة للقراءة لا لتبادل الأحاديث !..

وقررنا ــ ليلى وأنا ــ أن نلتقى فى أماكن أخرى . ولم أعد لخجلى ــ أتردد على المكتبة .

***

أفدت من ابن عم لى ، الصحفى محمد عوض جبريل ، دون أن ألتقى به . مات وأنا طفل ، فلم أتعرف إليه إلاّ فى صورة معلقة على جدار بيته حين زرته مع عمتى فى إجازات الصيف . أذنت لى أرملته ــ فاطمة هانم ــ بالاطلاع على مكتبته . وكانت مكتبة ثرية بالفعل ، غاب

عنها التخصص لأن معظم ما حوتـــه كان إهداءات من المؤلفين لصحفى مرموق !..

وأحببت السير الأدبية والشخصية للمازنى وأحمد أمين وزكى نجيب محمود وغيرهم . فلما قرأت ــ فيما بعد ــ اعترافات جان جاك روسو ، بدت مغايرة لكل ماقرأته فى أدب السيرة ، وهزتنى هزاً عنيفاً ..

وقرأت عن بيرم التونسى ، منذ مولده بالإسكندرية فى ١٨٩٣ ، وتعلمه فى الكتّاب ، وفى قراءات المكتبات العامة ، وعلى أيدى المثقفين ، واشتغاله بالعديد من الحرف : بيع الخضر والسمن ، والصيد ، ونفوره من صناعة الهوادج ، وكتاباته الزجلية الباكرة ، وأولى قصائده : المجلس البلدى ، فإصدار المسلة : لا جريدة ولا مجلة ، والخازوق . ثم النفى من مصر ، والعودة بالتخفّى ، والنفى ــ ثانية ــ بعد العثور عليه . ومع أنى كنت أعلم أن جامع أبى العباس قد أعيد بناؤه فى منتصف الأربعينيات ، بل انى أذكر الصور غير الواضحة التى تنتسب لأعوام الطفولـــة ، لعمليات البناء : الرمال ، والطوب الأحمر ، وخلطة الأسمنت ، والفواعلية ، وهيلا ليصة .. صور لا تتصل بما قبل ولا بعد كطبيعة

ذكريات الطفولة ، حين يلفّها الضباب ، وتبدو غير متصلة . مــع ذلك ، فإنى كنت ــ أثناء مذاكرتى فى صحن أبى العباس ــ أتخيّل الأماكن التى ربما تلقى فيها بيرم التونسى تعليمه عندما كان أبو العباس مقراً للمعهد الدينى ..

وقرأت الترجمة العربية للمجلدات الأولى فى موسوعة أرنولد توينبى الثرية " دراسة التاريخ " . لم تكن ترجمات كاملة ، لكنها وافية بحيث استطعت ــ من خلالها ــ أن أتعرف إلى فكر توينبى . وبالتحديد : نظرتــه إلى الحضارات وأصولها ، ميلادها وارتقائها وذوائها ، فموتها !. أخضع توينبى تطــور الحضارات لمنهج تجريبى ، أثبت من خلاله أن الحضارات لا تفهم إلاّ فى إطار النمط الدورى . الكائن الحى الذى يمر بكل مراحل الحياة ، بدءاً بالميلاد ، وانتهاء بالموت . الحضارة تولد وتنمو حتى تصــل إلى ذروة قوتها ، قبل أن تشيخ وتموت . ليست الحضارة الإنسانية وحدها ، وإنما كل ماهو انسانى . حتى أبى لم يعد هو ذلك الأب القديم بحيويته وفتوته . بدأت " حضارته " فى الذواء . وأذكر أنى سألت نفسى وأنا أناقش فكرة توينبى فى بواعث حضارة الغرب وذوائها : هل تصادف حضارة

الغرب ما ذهب إليه توينبى فى فكرته ؟.. هل تشهد الانحلال الذى توقّعه لها توينبى ، فتتحقق الحتمية التاريخية ، رغم الحلول التى وضعها توينبى نفسه ، لإنقاذ تلك الحضارة مما يتهددها ؟!..

***

وأثناء انشغالى بإتمام الجزئين الثانى والثالث من كتابى " مصر فى قصص كتابها المعاصرين " ــ عقب صدور الجزء الأول فى ١٩٧٢ ــ دلّنى صديقى الدكتور رفعت السعيد على مصدر لم أكن تنبهت إليه ، هو عصام الدين حفنى ناصف . فلما أتاحت لى أرملته أن أقرأ كتبه ، وأقلب فى أوراقه ، كان ذلك بداية تعرفى ــ وإن جاء متأخراً ــ إلى عالم خصب وثرى لواحد من أساتذتى الأساسيين . أزعجتنى ــ بداية ــ أوراقه المسرفة فى الإلحاد ، إلى حد أنه وضع النكات والقصائد الساخرة التى تتناول الذات الإلهية . مولدى ونشأتى بالقرب من أبى العباس والبوصيرى وعلى تمراز ، وأدائى للفرائض فى سن باكرة ، وتواصل حياتى فى أجواء قريبة من الدين ، أو لصيقة به .. ذلك كله جعل كتابات عصام الدين حفنى ناصف الملحدة أشبه بالصدمة .

زاد من وقعها أنها كانت أول ما طالعته عيناى فى أوراقه . لكن العالم الحقيقى للـــرجل مالبث أن توضّح فى كتابات تكفل له مكانة متفوقة بين مفكرى عصره وأدبائه ، وربما بين القيادات الاجتماعية والسياسية لذلك العصر .

يسأله المحقق فى احدى قضايا الرأى : تشير فى كتاباتك إلى الأموال التى تصرف فى اسراف مخيف ، وتكفى لتحسين حالة الفلاح لحد ما .. فماذا تقصد من ذلك ؟

يجيب : أريد مثلاً ، الأموال التى تنفق على الزينة فى أعياد جلالة الملك ، ولا يستفيد منها غير أصحاب محلات الكهرباء والأجانب وغير ذلك حاجات كثيرة جداً . فالأغنياء مثلاً يشترون الماسات ، ويقيمون الأفراح ونحو ذلك . ومثال ذلك أيضاً ، البرنس يوسف كمال ، عنده ٤٠ كلباً للصيد يذبح لها خرفاناً مخصوصة ، بينما الفلاحون فى أرضه لا يأكلون غير المش ، وهو وغيره يحجزون على أملاك الفلاحين إذا خسرت الزراعة ..

أما الكتاب ، فهو " التجديد الاجتماعى " . أصدره عصام الدين حفنى ناصف فى ١٩٣٠ . ولخطورة ماورد فى الكتاب من أفكار قدمت حكومة اسماعيل صدقى مؤلفه إلى

المحاكمة . كان رأى عصام ناصف أن " الفلاح يزرع ، فيجب أن يحصد . الفلاح هو المنتج ، فيجب أن يكون هو المتمتع " . وقد تقلّب الرجـــل بين أكثر من حزب سياسى ، لكنه احتفظ دائماً بأفكاره المناهضة للاستعمار والرجعية والإقطاع والرأسمالية الاحتكارية . وتوضحت أفكاره وما يدعو إليه عندما مارس الكتابة الأدبيـــة والدينية والسياسية . قدّم كتاب " النشوء والارتقاء " لداروين ، تأكيداً لحتمية انتصار العلم على المنطلقات السلفية والنقلية . ثم ترجم قصة تولستوى " النور يضئ فى الظلام " ، وترجم لديستويفسكى " الزوج الأبدى " ، ثم انصرف ــ فيما يشبه التفرغ ــ للكتابة عن الاشتراكية . وبلغ ما أصدره ٢٣ كتاباً ، بالإضافة إلى عشرات الدراسات والمقالات فى الصحف . ومما أعتز به ، تلك الأوراق التى سجل فيها بعض خواطره وأفكاره ، والتى مازلت أحتفظ بها ، بمبادرة سخية من أرملته ..

***

ولأنى ــ منذ بدايات حياتى العملية ــ كنت أعانى ضآلة المرتب ، بحيث بدا شراء الكتاب ، وربما المجلة ، عبئاً لا أقوى على تحمّله ، ولأنى انصرفت أعواماً تزيد عن

السبع ، لتأليف كتابى " مصر فى قصص كتابها المعاصرين " فقد تحددت مواردى فى المكافأة التى كنت أتقاضاها من جريدة " المساء " ، والتى أنقصت ــ للغرابة ــ بعد أن تم تعيينى ، وصارت مرتباً ، يصعب ــ والتعبير لصديقى الراحل فاروق منيب ــ أن تطعم قطة !..

أصارحك بأن ذلك الوضع المادى المأزوم لم يشهد انفراجة ، إلاّ حين أقنعنى أستاذى عبد المنعم الصاوى وصديقى صلاح الدين حافظ بالسفر فى رحلة عمل إلى سلطنة عمان ، توليت أثناءها إصدار جريدة " الوطن " ، وهو ما رويته ــ بإفاضة ــ فى سلسلة مقالات نشرتها مجلة " الدراسات الإعلاميـــة " . أعود إلى الأجندات الصغيرة التى كنت أسجّل فيها ــ أحياناً ــ بعض الملاحظات . الملاحظة التى لم تتغير فى كل افتتاح لمعرض القاهرة الدولى للكتاب ، أن مرتّبى لم يكن يأذن لى بشراء الكتب التى أريدها . حاولت ــ فى أعوام الحصار المادى ــ كم كانت طويلة ! ــ أن أفيد من مكتبات أصدقائى . أتاحوا لى قراءة ماتضمّه مكتباتهم . وزاد البعض ــ مثل يحيى حقى ونجيب محفوظ ومحمود تيمور وثروت أباظة ــ فأهدونى النسخ

المكررة مما بحوزتهم من الكتب . ولما شغلنى البحث عن مراجع ومصادر لكتابى " مصر فى قصص كتّابها المعاصرين " أفسح لى صديقى محمد فهيم شلتوت مكتبــه فى دار الكتب لقراءة كل ما أطلبه . كما أفدت من مكتبة الدومينكان بالعباسية . صداقة الأب جاك جوميه وفرت لى مراجع ، بعضها لم يكن فى قوائم دار الكتب .

مؤلفات محمد جبريل

روايـــــات :

١ ــ الأسوار (١٩٧٢) هيئة الكتاب ــ نفد

٢ ــ إمام آخر الزمان (١٩٨٤) مكتبة مصر ــ نفد

٣ ــ من أوراق أبى الطيب المتنبى (الطبعة الأولى ١٩٨٨) هيئة الكتاب ــ (الطبعة الثانية ١٩٩٥) مكتبة مصر

٤ ــ قاضى البهار ينزل البحر (١٩٨٩) هيئة الكتاب

٥ ــ الصهبة (١٩٩٠) هيئة الكتاب

٦ ــ قلعة الجبل (١٩٩١) روايات الهلال

٧ ــ النظر إلى أسفل (١٩٩٢) هيئة الكتاب

٨ ــ الخليج (١٩٩٣) هيئة الكتاب

٩ ــ اعترافات سيد القرية (١٩٩٤) روايات الهلال

١٠ ــ زهرة الصباح (١٩٩٥) هيئة الكتاب

١١ ــ الشاطئ الآخر (١٩٩٦) مكتبة مصر

١٢ ــ أبو العباس ــ رباعية بحرى (١٩٩٧) مكتبة مصر

١٣ ــ ياقوت العرش ــ رباعية بحرى (١٩٩٧) مكتبة مصر

قصص قصيـــــرة :

١٤ ــ تلك اللحظة (١٩٧٠) نفد

١٥ ــ انعكاسات الأيام العصيبة (١٩٨١) مكتبة مصر ــ نفد

١٦ ــ هل (١٩٨٧) هيئة الكتاب

١٧ ــ حكايات وهوامش من حياة المبتلى (١٩٩٦) هيئة قصور الثقافة

١٨ ــ سوق العيد (١٩٩٧) هيئة الكتاب

١٩ ــ انفراجة الباب (١٩٩٧) هيئة الكتاب

كتب أخـــــــرى :

٢٠ ــ مصر فى قصص كتابها المعاصرين (١٩٧٣) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ــ هيئة الكتاب

٢١ ــ مصر .. من يريدها بسوء ؟ (١٩٨٦) دار الحرية

٢٢ ــ نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (١٩٩٣) هيئة قصور الثقافة

٢٣ ــ السحار..رحلة إلى السيرة النبوية (١٩٩٥) مكتبة مصر

٢٤ ــ آباء الستينيات.جيل لجنة النشر للجامعيين (١٩٩٥) مكتبة مصر

٢٥ ــ قراءة فى شخصيات مصرية (١٩٩٥) هيئة قصور الثقافة

٢٦ ــ مصر المكان .. دراسة فى القصة والرواية (١٩٩٨) هيئة قصور الثقافة.